الفصل التاسع

وسائل المعرفة

- مشكلة وسائل المعرفة
- المنظومة الإسلامية لوسائل المعرفة
- ما هى وسائل المعرفة
- أنواع العلم ووسائل المعرفة
- آثار التصحيح القرآني لمعنى العلم الطبيعي وتنظيمه لوسائل المعرفة
- مولد العلم التجريبى

obeikandl.com

obeikandl.com

مشكلة وسائل المعرفة

وسائل المعرفة المختلفة التي يمتلكها الإنسان ، والعلاقة بينها ، ودور كل وسيلة ، وميدانها الذى يناسبها هي إحدى مشكلات البشرية الكبرى منذ أن عُرف لها تاريخ .

وهي إحدى المسائل التي احتشد لها الفلاسفة قديمًا وحديثًا ، وتعاركت حولها النظريات الفلسفية والمناهج العلمية ، وقامت المدارس تبغي حل هذه المشكلة العويصة التي تبدو وكأنه لا حل لها .

وهي أيضًا إحدى المسائل التي تكون الإجابة عليها جزءًا من رؤية الإنسان وتصوره للوجود كله ومقدار ما يعتبره أو يدخله منه في نطاق الحقيقة .

الإنسان مفطور في نفسه على العلم والمعرفة ، ويجد في نفسه تطلعًا للبحث والتساؤل ، وهو يريد أن يهتدي إلى إجابات عما يسأل عنه ، إجابات مقبولة مفهومه تخاطب كينونته ووجوده كله ولا تمزقه أو تجعله متضارب المكونات ، فيمكنه بذلك أن يستريح وتقر نفسه ويهدأ عقله ويعرف ما يختص بحياته ووجوده وما يحيط به .

قد يقول قائل : أين هي المشكلة بالضبط ؟ الإنسان له عقل ، وله حواس وخبرات يكتسبها من الحياة ومما يحيط به ، وكل تجمع في البشرية كان له صفوة يتعرف منها على ما هو خارج نطاق العقل وفوق قدرات الحواس : إطار الحياة وغاياتها ، سواء كانت الصفوة عقائدية أو علمية أو فلسفية .

ونقول : هذه بالتحديد هي المشكلة .

فالإنسان منذ وعى وجد نفسه أمام وسائل وقدرات متعددة يمتلكها ، فهو ذو عقل قادر على التفكير والربط والاستنتاج وتوليد الأفكار وبناء النظريات ، وهو أيضًا يمتلك من الحواس ما يرى به ويسمع ويجمع ما يراه حوله من ظواهر

الكون ومظاهر الطبيعة أو المجتمع والناس ، والإنسان في كل عصر كان له عقيدة ودين ، حقًّا كان أو باطلاً ، يرسم له صورة ويعطيه معرفة تضيق أو تتسع حسب رغبة القائمين عليها وتصورهم .

العقدة في وسائل المعرفة والمشكلة التي تبلبلت فيها البشرية هي : أي وسيلة من هذه الوسائل هي الوسيلة الفعالة المؤدية إلى معرفة حقيقية ، وأي وسيلة منها يجب على الإنسان أن يستخدمها وكلها معه وتحت طوعه ، وما هو الموضع الذي يناسب كل وسيلة من وسائل المعرفة التي يمتلكها الإنسان لتوضع فيه ولا توضع في غيره حتى لا تؤدي إلى الوهم أو الخطأ ، وهل تصلح وسيلة من وسائل المعرفة وحدها للعلم بكل شيء ، وهل يمكن الاكتفاء بوسيلة معرفة عن الأخريات؟

البشرية واجهت في وسائل المعرفة مشكلتين :

المشكلة الأولى هي : ما هو الميدان المناسب والمجال الذي تختص به كل وسيلة من وسائل المعرفة ، أو ما هي وسيلة المعرفة الصحيحة لكل مجال من مجالات العلم والمعرفة؟

والمشكلة الثانية : ما هي العلاقة بين هذه الوسائل المتعددة ، وكيف يمكن إيجاد علاقة منظمة بينها تضع كلاً منها في مجاله الذي يناسبه ، لنصل في النهاية إلى تناسق وانسجام بين وسائل المعرفة بدلاً من التضارب والتنافر أو إلغاء بعضها بالبعض الآخر ، ثم ليكون هذا التناسق والانسجام فعالاً في استخدام وسائل المعرفة ومؤديًا إلى معرفة حقيقية وارتقاء في علم الإنسانية وإدراكها؟

ولكي نعرف النقلة الحضارية التي أوجدها القرآن فيما يختص بوسائل المعرفة ، وما أتى به من منظومة متناسقة واضحة لوسائل المعرفة وتنظيم للعلاقة بينها لكي تصبح متعاضدة في وحدة واحدة وتؤدي مهمة واحدة ، تختص فيها كل وسيلة معرفة بجزء ومجال منها فى انسجام وإحكام ، لكي

نعرف لابد أولاً من إلقاء نظرة سريعة على كيفية فهم البشرية وتعاملها قبل القرآن وبعده في غير أهله مع وسائل المعرفة المتعددة التي يمتلكها الإنسان ، والتي من تعددها يضطرب بينها ويكاد يتوه فيها ولا يعرف كيف يفصل بينها وينظم علاقاتها .

قبل المسيحية وقف العالم الإغريقي أمام وسائل المعرفة المتعددة التي يمتلكها الإنسان فلم يعجبه منها سوى العقل .

والعقل وسيلة معرفة إنسانية فعالة وأداة ارتقاء كبرى ، ولكن العقل كوسيلة معرفة له دور ومجال ، إذا تخطاه كان وبالاً على أهله ، وكان حطًّا وإزراءً به هو نفسه ، فوضع العقل في غير موضعه واستخدامه في غير مجاله كتعليق جوهرة ثمينة في صدر عنز!

افتتن الإغريق بالعقل واختاروه ، ولم يعرفوا أو رفضوا كل وسيلة للمعرفة الإنسانية سواه ، فوضعوه في كل شيء قابلهم وجعلوه حكمًا وفيصلاً في كل ميدان ، فما تخيله وتصوره وقعده ونظره هو عندهم الحقيقة المطلقة ، وكل ما عداها باطل وإن كان الإغريقي يراه بعينيه ، وما لا يراه بعينيه لا يكلف نفسه مجرد النظر إليه للتيقن منه أهو كما رسمه عقله وتخيله أم لا .

ولأن العقل في غير موضعه كدرة في صدر عنز ازدهر الإغريق وبرزوا وأنجزوا في المجال الوحيد الذي يصلح العقل وحده أن يكون وسيلة المعرفة فيه ، وهو ميدان العلوم النظرية أو التصورية ، فـ : « **كانت أعظم الإنجازات العقلية التي توصل إليها اليونانيون هي تلك التي تمت في ميدان الفلسفة والرياضيات** »[1] .

والفلسفة نتحفظ عليها كثيرًا ، فأن يجلس أحد في غرفة أو تحت شجرة ثم يقوم بتخيل صورة للوجود والكون والخلق والإله لا تمت للحقيقة بصلة ولا أثر لها على الإطلاق في مسيرة البشرية ورقيها في أى مجال لا يسمى

(١) التفكير العلمي ، ص١٣١ .

إنجازًا ، بالغة ما بلغت درجة التعقيد والتركيب الذي أوجد فيه هـذا الأحـد هـذا النسق .

أمـا الرياضـيات فـنعم كانـت هـي ، بحكـم مناسـبة وسـيلة المعرفـة الـتي اعتمدوها لهذا المجال ، ما أنجزوا فيه ، ولكن ليس كل الرياضة وإنما ما يتعلق منها فقط بالتخيل العقلي والقدرة على التصـور ومـلء الفـراغ ، أي الجـزء مـن الرياضيات الذي يكون فيه التقدم باستخدام العقل وحده ، وهو الهندسة .

أما الجزء الآخر من الرياضة المتعلق بالأرقام والحسـاب : «**فكـان بالنسـبة لليونانيين ترفًا فكريًّا محضًا**»[1].

وكلمة : حساب في أصلها الإغريقـي ، كمـا ذكرنـا ، تعـني اللعـب أو اللـهو بالأعداد الذي لا يليق إلا بالباعة في الأسواق أو البرابرة .

وما عدا هذا المجال ، الهندسة ، الذي هـو المجـال الوحيـد الـذي وضـع فيـه الإغريق وسيلتهم للمعرفة وكان مناسبًا لها فأنجزوا فيه ، ما عدا هذا المجـال لم يقدم الإغريق للبشرية شيئًا حقيقيًّا يسهم فـي رقيـهـا في أي مجـال آخـر ، لأنـه لا يوجد مجال آخر يمكنه التقدم والرقي بالعقل كوسيلة معرفة وحيدة .

وضع الإغريق العقل في مسألة الألوهية فوصلوا إلى أن الصـورة الـتي يجـب أن يكون عليها الإله هـي مـا ذكرنـا : السـاكن المسـتقر في الجـزء العلـوى مـن الكـون ، الــذي لا يتحــرك لأن الحركــة قصــور ، وهــو يحــرك العــالم إليــه بمغناطيسية الشوق والمحبة .

ووضـعوا العقـل وحـده كوسـيلة معرفـة في التعامـل مـع الكـون والطبيعـة والمخلوقات ، فلم يكلف أرسطو نفسه حين حكـم أن عـدد الأسـنان في فـك المرأة أقل منها في فك الرجل أن يعد هذه وتلك ، وكذا جالينوس حـين جـزم أن الفك السفلي يتركب من عظمتين لم يكلف نفسه أن ينظـر إلى مـا يجـزم بـه ليتقين منه ببصره .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٣٢ .

ولا نظر الإغريق إلى الكون ولا راقبوا حركة أفلاكه ، ولا خطر لهم ذلك وهم يصفونه ويضعونه على تلك الصورة المجزءة التي وضعوه عليها ، يكفي فقط تصورهم العقلي الذى يرسمونه ، وعلى الكون أن يكون كما تصورت عقولهم ، فإذا ما تعاملوا مع ظواهر الطبيعة : «**جردوا اللون والحرارة والرائحة والوزن ومقدار الضوء والسرعة في الحركة من كل الصفات والمواصفات التي تقدمها لهم الحاسة**»[1].

فالإغريقي حين يتعامل مع ظواهر الطبيعة يحولها إلى أفكار نظرية مجردة لا علاقة لها بما يراه أو تكشفه حواسه ، لذلك جاء علمهم الطبيعي والكوني ، كما يقول ديورانت : «**كتلة من الملاحظات الفجة عسيرة الهضم ، وبينما كانت الفلسفة اليونانية تتقدم في النظريات والاستنتاجات كان العلم يتخلف وراءها**»[2].

إذًا الغرب قبل المسيحية اعتبر العقل وسيلة المعرفة الوحيدة ووضعها في كل مجال واقتحم بها كل ميدان وصادر بها كل وسائل المعرفة الأخرى ، فانتهى إلى تصور مضحك للألوهية والعقائد ، وإلى فشل في فهم الكون والتعامل معه ، وإلى صورة وهمية نظرية للطبيعة ، وظلت البشرية وحياتها ، كما قال لويس برنال ، بعد أن عبر الإغريق والرومان العالم كما كانت قبلهم لآلاف السنين .

وبعد أن وضعت المسيحية البابوية قبضتها على الغرب ، أو بدقة وضعت الإمبراطورية الرومانية قبضتها عليه وعليها ، وقفت المسيحية من وسائل المعرفة الموقف نفسه الذي وقفه الغرب قبلها .

وقف الغرب بردائه المسيحي هذه المرة أمام وسائل المعرفة المتعددة ، فاختار وسيلة وحيدة اعتمدها وصادر بها وسائل المعرفة الأخرى جميعها ، واعتبر كل معرفة عن غير طريق هذه الوسيلة باطلة وخطيئة تستوجب العقاب .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ١٢٧ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص ١٢٠ .

الفرق بين الغرب الإغريقي والغرب المسيحي أن الغرب الإغريقي اختار العقل وحده والغرب المسيحي اختار النص وحده ، أو لو شئنا الدقة اختار التعاليم الكنسية وحدها .

كانت مشكلة الإغريق هي افتقادهم للوحي والإرشاد الإلهي واستعلاءهم على الحواس ، فأصبحت مشكلة المسيحية هي وجود نص قلق به فجوات عديدة تم ملؤها بالتلفيق والتحريف والتعديل ليتناسب التلفيق هنا مع التلفيق هناك ، ثم تعديل التعديل وهكذا ، حتى صار النص التوراتي الإنجيلي نصًا متهرئًا مليئًا بالثغرات ويستطيع أي ناشئ يقلب فيه أن يكتشف التضارب الذي يحويه ومخالفته للحقائق المرئية المحسوسة وللحقائق العقلية الملموسة وعدم قدرته على تقديم تفسير مفهوم مقنع لأي شيء[1].

لذلك لم يكن ثمة مفر أمام الكنيسة والبابوات للحفاظ على سلطانهم وضمان ولاء الأتباع سوى إشاعة الجهل وضرب حجاب كثيف حول المعرفة ، إذ لا سبيل أمامها لحماية النص من نقده وكشفه سوى ذلك .

فعملت الكنيسة بسيطرتها على الملوك والحياة الاجتماعية على تحجيم الغرب كله وبناء خندق حوله يمنعه من معرفة الحقيقة والخروج عليها ، فعلى الصعيد الجغرافي تبنت نظرية بطليموس التي تجعل المحيط الأطلنطي خضمًا هائلاً لا شيء خلفه ، وتجعل إفريقيا أرضًا يابسة ممتدة لا نهاية لها لتضمن بذلك انحصار رعاياها بين المحيط الأطلنطي والمحيط الإسلامي وعدم قدرتهم على الخروج والاحتكاك بالعالم الخارجي .

وعلى الصعيد الفكري والعقلي حجمت الكنيسة والبابوات المعرفة وقلصتها إلى أدنى درجة ممكنة في كل مكان حلت فيه ، كما تقول زيجريد هونكه ، وعملت على إشاعة الجهل ومنع القراءة والاطلاع ، حتى الإنجيل والتوراة كان ،

---

(١) عن التضارب بين نصوص التوراة والأناجيل ومخالفتها لحقائق العلم والعقل والتاريخ انظر : موريس بوكاي : القرآن والإنجيل والتوراة والعلم .

وما زال ، يحرم قراءتها كاملة ، فالمسيحي المؤمن الملتزم بتعاليم الكنيسة يقرأ فقط ما يختاره القس ويقدمه له .

والقساوسة أنفسهم كانوا لا يستطيعون القراءة والاطلاع إلا على كتب وقوائم بعينها ليس لهم أن يتعدوها ، بل كان كثير منهم يجهل القراءة والكتابة تمامًا ، حتى أن : «**كثيراً من المطارنة كانوا لا يقدرون أن يوقعوا لوائح المجالس التي كانوا أعضاء فيها**»[1] **!!**

ويمكن أن نتصور حالة عامة الناس كيف كانت إذا كان هذا هو علم المطارنة وثقافتهم ، وهم الخاصة والصفوة في ذلك الزمن .

إذًا لم يكن هناك مفر أمام الكنيسة وبابواتها من إلغاء أي طريقة ومصادرة أي وسيلة للإنسان يمكن أن يعرف بها حقيقة جغرافية أو كونية تهز سلطان النص والكنيسة ، ولم يكن أمامها بد من ضرب الحصار على أي وسيلة يستطيع بها الإنسان أن يكتشف تضارب النص واختلاطه .

وجدت الكنيسة والقائمون عليها وعلى العالم الذي تقف على رأسه أن الوسيلة الوحيدة لتثبيت النص والسلطان هي إلغاء كل وسائل المعرفة الإنسانية جملة واحدة ! فلا فائدة من الحواس ، والطبيعة والكون الذي تتعامل معه الحواس شر وعفن ، ولا طائل من وراء العقل إذ لم يجن الإنسان من ورائه سوى المعرفة ، وهي الخطيئة التي لعن بسببها وعوقب بالضنك في الأرض .

ولما كانت المعرفة والكشف عن الأشياء والرغبة فيها مكونًا إنسانيًّا وماهية بشرية ، أحلت الكنيسة تعاليمها مكان وسائل المعرفة التي أزاحتها وصادرتها ، فأصبحت المعرفة الوحيدة الممكنة هى ما يأتي عن طريقها وبإرشادها ، وفي كافة المجالات والميادين .

فالكنيسة هي التي تحدد شكل الكون وترتيبه ، وهي التى ترسم جغرافية الأرض وتضاريسها ، وهي التي ترفع الملوك وتسقط العروش وتتحالف مع

---

(١) أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص٢٤٧ .

الدول ، وهى التي تشن الحروب الصليبية التي دشنها البابا أوربان الثاني لأن هذه هي إرادة الرب ومشيئته !

وصار كل ما تقوله الكنيسة وما يفعله باباواتها وحيًا مقدسًا وجزءًا من النص لا ينبغي لأحد مناقشته أو التفكير فيه ، وإذا تجرأ أحد على ذلك كان هذا الوحي المقدس نفسه كفيلاً بالرد وإعلان عصمة البابا وكل من ينوب عنه وتمثيله للإله على الأرض(•).

إذًا ما زال الموقف كما هو ، تبني وسيلة معرفة وحيدة تصادر بها كل وسائل المعرفة الأخرى وينحصر العلم بكل شيء فيها : العقائد والطبيعة والكون والأخلاق والقانون .

وانعتق الغرب من إسار الكنيسة والبابوات وخرج من قمقمها وخندقها بالعلم الذي أخذ مناهجه وصورته القرآنية المصححة من تطبيق المسلمين له .

وبهذا الانعتاق أصبح الغرب أمام مشكلة لابد لها من حل ، فقد كانت التعاليم والكنيسة هي مصدر المعرفة الوحيد ، والآن تفكك هذا المصدر وصار غير أهل لأن يدلي بدلوه فى أي نوع من أنواع المعرفة ، ولا حتى المعرفة العقائدية وما يختص بالألوهية والدين ، فكان لابد من البحث عن وسائل للمعرفة ومصادر لها تملأ الفراغ الذي نشأ بإزاحة الكنيسة وتعاليمها كمصدر للمعرفة .

وبدأ الغرب رحلة طويلة وقامت المدارس وتحزب الفلاسفة والعلماء ، كلٌّ يدلي بدلوه في الفراغ الجديد ويضع تصورًا لوسيلة المعرفة التي يمكن أن تسد هذا الفراغ وتعطي معرفة صادقة بكل شيء ، كل شيء .

(•) في مواجهة حملات النقد العنيفة الموجهة للكنيسة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر أعلن المجمع المسكوني الأول الذي تم افتتاحه في ديسمبر ١٨٦٩م عصمة البابا من الخطأ باعتباره ممثلاً للإله على الأرض!! انظر تفاصيل المعارك بين الكنيسة ونقادها في القرون الأخيرة فى : دكتورة زينب عبد العزيز : هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة .

obeikandl.com

واختلفوا ما اختلفوا وتباينوا ما تباينوا ولكنهم اتفقوا على شيء واحد ، ألا وهو مصادرة الكنيسة والنص التوراتي الإنجيلي كمصدر للمعرفة ، والبحث عن وسائل المعرفة الحقيقية بالأشياء كلها في الإنسان والطبيعة فقط .

وبعد هذا الاتفاق المبدئي على إلغاء النص والكنيسة كمصدر للمعرفة تفرقوا واختلفوا ، وانتهوا في اختيار الوسيلة الحقة للمعرفة الحقيقية إلى أربع مدارس .

١ - الحواس :

الحواس هي ما انتهى الفلاسفة التجريبيون ، كجون لوك ، إلى أنه مصدر المعرفة الحقيقي والوحيد للإنسان ، فالعقل حين يولد الإنسان كما يقول جون لوك : «**يكون أشبه بصفحة بيضاء خالية من كل شيء ، ثم تأخذ الحواس والتجارب في الكتابة على هذه الصفحة إلى أن تلد الذاكرة ، والذاكرة تلد الآراء**»(١).

وطالما أن المعرفة لا تأتي إلا عن طريق الحواس : «**فلو أقفلت أبواب الحواس واحدًا بعد الآخر لا متنعت المعرفة جانبًا بعد جانب ، حتى تمتنع المعرفة كلها إذا أقفلت الأبواب كلها**»(٢).

«**ولما كانت الأشياء المادية وحدها هي التي تؤثر على الحواس ، فإن الإنسان لا يعرف شيئًا إلا المادة . وإذا كانت الحواس هي وسائل الأفكار فإن المادة بالضرورة هي التى يستمد منها العقل أفكاره وآراءه**»(٣).

إذا انتهى الفلاسفة التجريبيون إلى اعتماد الحواس كمصدر حقيقي وحيد للمعرفة الإنسانية وصادروا بها كل وسائل المعرفة الأخرى : النص والتعاليم والعقل الذي لم يعد له وجود حقيقي ، أي هو في حقيقته وجوهره الموقف

---

(١) قصة الفلسفة ، ص٣٢٠ .

(٢) دكتور زكى نجيب محمود : نظرية المعرفة ، ص٥٣ .

(٣) قصة الفلسفة ، ص٣٢٠ .

والمنهج الإغريقي المسيحي نفسه : الانحياز لوسيلة معرفة ومصادرة غيرها من الوسائل وإلغائها بها .

٢- العقل :

العقل هو المصدر الوحيد والمعتمد كوسيلة لمعرفة الحقائق عند العقلانيين ، أصحاب المذهب العقلي ، وهؤلاء وقفوا على الجانب المقابل من التجريبيين ، فالعقل عندهم هو مصدر المعرفة الوحيد ، أما الحواس والمعرفة التي تأتي عن طريقها فهي عندهم ناقصة وغير حقيقية ، لأنها تفتقد شرطين هما اللذان يجعلان المعرفة معرفة ، وهما أن : «**المعرفة الحسية ليست ضرورية ، فلا يتحتم أن تكون المعلومات الآتية إلينا من الحواس على ما هى عليه في الحقيقة ، كما أنه لا يمكن تعميم هذه المعرفة إلا بالإحصاء والمشاهدة ، وهذه قد تتغير نتائجها**»[١].

وإذًا المعرفة الحقة أساسها العقل الذي يدركها إدراكًا مباشرًا ، وإذا كان التجريبيون قد محوا العقل ، فإن العقلانيين ليسوا بأقل منهم كفاءة واقتدارًا ، فقد ردوا عليهم بمحو المادة ، فكما يقول جورج بركلي : «**أصبحت جميع أنواع المادة حالة عقلية أو حزم عقلية**»[٢].

مرة أخرى ، التشبث بمصدر وحيد للمعرفة وإلغاء كل ما سواه ، ومن ثَم انتهى البحث في وسائل المعرفة التي يمكن أن يصل بها الإنسان إلى علم حقيقي ومعرفة يقينية مؤكدة إلى أن هدم العقلانيون المادة ومحوها من الوجود ، وهدم التجريبيون العقل فلم يعد له وجود حقيقي ، وهدما معًا العقائد والتعاليم !!

فانهار على يد هؤلاء العقل ، وانهارت على يد أولئك المادة ، وانهار على

---

(١) نظرية المعرفة ، ص٧٠ .

(٢) قصة الفلسفة ص ٣٢١ .

أيديهما معًا الدين والعقيدة ، ووجدت الفلسفة نفسها ، كما يقول ول ديورانت ، وسط أنقاض خربة قوضتها بنفسها ودمرتها بيدها !

٣- العقل والحواس :

«**في هذا الإطار الباعث على اليأس**»[١] الذي انهارت فيه كل وسائل المعرفة ، فهدم البعض العقل وهدم البعض الآخر المادة ، وهدموا معًا الدين والعقائد والنفس والروح ، ظهر الفلاسفة النقديون وعلى رأسهم عما نويل كانط لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

جمع كانط بين العقل والحواس كمصادر للمعرفة ، فوفق بذلك بين الماديين التجريبيين وبين العقلانيين الذاتيين ، وكان هذا التوفيق والجمع يقوم على أن : «**معرفة الإنسان يستحيل أن تتجاوز حدود خبرته الحسية ، إلا أن هذه الخبرة الحسية نفسها لابد لها من إطارات أو قوالب أو مقولات تكون فطرية في طبيعة العقل لتتشكل الخبرة الحسية على غرارها**»[٢].

فالعقل هو الذي : «**يستقبل الإدراكات الحسية ويرتبها ويسكبها ويصوغها إلى مدركات فكرية منظمة**»[٣].

إذًا انتهى التوفيقيون بين العقل والحواس إلى أن العقل هو القالب الذي يحدد المعرفة ويشكلها ، بينما المعرفة نفسها أو حشو القالب حسي لا يأتي إلا عن طريق الخبرة والتجربة الحسية ، ونجحوا لأول مرة في الجمع بين العقل والحواس والتوفيق بين وسيلتي معرفة معًا في وقت واحد ، فلا تنفي إحداهما الأخرى .

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٢٦ .
(٢) نظرية المعرفة ، ص٧٧ .
(٣) قصة الفلسفة ، ص٣٤١ .

فهل انتهت المشكلة وتمكن الغرب بذلك من الوصول إلى تنظيم لوسائل المعرفة وتنسيق بينها واستخدامها فيما ترتقي به البشرية على جميع الأصعدة وما تحل به مشاكلها ؟

أبدًا !!

لماذا ؟

لأن هؤلاء اتفقوا مع سابقيهم على إلغاء التعاليم الكنسية ومصادرة النصوص واللاهوت كمصدر للمعرفة .

قد يقال : وماذا فى ذلك ، هذا تطور طبيعي ، ألم يكتشفوا تلفيقها وتضاربها ؟

ونقول : في ذلك أنه لم تعد ثمة وسيلة للمعرفة يمكن بها معرفة العقائد ، والألوهية ، ومعنى الإنسان ، ومن أين جاء ولماذا ، وتحديد معيار الأخلاق والقيم الإنسانية ، وميزان التفرقة بين الخير والشر ، أو بإيجاز : كل الأسئلة التي لا يتحقق وجود الإنسان واستقراره إلا بمعرفتها .

فهذه كلها مما لا سبيل إلى إدراكه ولا معرفته بالحواس ولا بالعقل ولا بهما معًا ، وهو ما قرره كانط نفسه ولم يستطع إيجاد حل له .

٤- الحدس :

قد يثور سؤال : ما وضع العلم الطبيعي وسط هذه التناقضات والمذاهب المتضاربة ؟

الحقيقة أن الغرب منذ اكتشف العلم واستمسك به لم يتركه ، وظل هو المشَكِّل والمكون الحقيقي لكل رؤى الغرب وتصوراته وفهمه للوجود ، وحين يختلف الغربيون فإن اختلافهم لا يؤثر في مسيرة العلم الطبيعي المطرد بالتراكم ، والقائم على التجربة والعقل ، سواءً أقروا بهما أو أنكروهما .

إذًا ما المشكلة ، العلم يتقدم وآثاره تتراكم وليقل الفلاسفة العائشون في الأبراج ما يقولون طالما أن ما يقولونه لا يؤثر في المسيرة؟!

والأمر ليس بهذه البساطة ، لأن تنظيم وسائل المعرفة ووضع كل منها في موضعه أمر ضروري لاستقامة حياة الإنسان ، لأن الإنسانية ليست علومًا طبيعية فقط ، بل هي علوم طبيعية ، وهي في الوقت نفسه عقائد وأخلاق وقوانين وعلاقات اجتماعية ونظم حكم .

وما حدث أنه نتيجة لانتفاء التنظيم والتنسيق بين وسائل المعرفة كان العلم يتقدم بصورة مطردة على حساب جوانب الإنسانية الأخرى كلها ، فكان من الطبيعي أن يرتفع الاعتراض على العلم الطبيعي من كل جانب : «**شعراء وفنانون وكتاب أزعجهم عقم الوصف العلمي للعالم ، فعارضوا العلم بالعاطفة وبالحياة وبالدين معلنين أن هناك طرقًا أخرى غير طرق العلم للوصول إلى الحقيقة**»[1].

وما يعنينا هو الثورة على وسائل المعرفة العلمية الجامدة وظهور الحدس أو البصيرة كمصدر للمعرفة ، فيرى أصحاب هذا المذهب ، وعلى رأسهم هنري برجسون ، أن : «**العقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود وفهمه ، أي أنها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ إلى باطنه ، وإذًا ليس العقل ولا الحواس هما الأداة الصالحة لإدراك الحياة لأن هذا مطلب فوق مقدورهما**»[2].

فما هي الوسيلة لمعرفة الحقيقة إذًا ؟

هي ، كما يقول برجسون : «**عدم الوقوف عند الجانب المنظور من**

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٢٩ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص٥٦١ .

الشيء المراد معرفته ، بل الغوص إلى الأعماق واجتياز الظواهر الخارجية لإدراك الجواهر الباطنة إدراكًا مباشرًا»[1]

فالحدس : «**هو الذي يظهر لنا الحقيقة الحقيقية ، لأنه يعمل في نفس الاتجاه الذي تعمل فيه الحياة ، أما الذكاء والعقل فإنه يعمل في الاتجاه المعارض**»[2].

وبهذه الطريقة يمكن معرفة كل ما وراء ظواهر الطبيعة ، كالإله ، وخلود النفس ، والحياة بعد الموت ، والأخلاق والقانون .

ورغم ثورة برجسون على كل وسائل المعرفة الميكانيكية إلا أنه اتفق مع الآخرين في أن النص والتعاليم ليست مصدرًا للمعرفة ، أو هي لا علاقة لها بها مطلقًا .

ولم تنته المشكلة ، فوسائل المعرفة لتعددها أمام الإنسان ، ولتعدد ميادين المعرفة نفسها تشكل متاهة أمام الغرب ، ما أن يسير في طريق منها حتى يكتشف أنه مسدود فيعود أدراجه ويجرب في طريق آخر ، ثم ثالث ورابع .

والنتيجة النهائية هي أن الغرب يقف نفس موقف أسلافه من آلاف السنين ، وكل حلول المسألة عنده هي تكرار لسوابق لها ، فهو لا يعرف كيف ينسق بين وسائل المعرفة المختلفة للوصول إلى المعرفة والعلم الحقيقي في كل مجال بوسيلة المعرفة التي تناسبه ، والتي يكون وضعها في غيره بابًا إلى الخلط والبلبلة وتداخل الأشياء وشيوع موجات اللا يقين وعواصف الحيرة والقلق .

إذًا الغرب كان وما زال يقف أمام وسائل المعرفة المؤدية إلى العلم الشامل بكل الأشياء موقفًا مضطربًا ، يؤدي إلى انهيار الثقة في كل وسائل المعرفة ، ويعيد كل جيل فيه موقف أسلافه ، فـ : «**أفلاطون يعود إلى الحياة مع**

---

(١) نافذة على فلسفة العصر ، ص١٤٧ .

(٢) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا ، ص١٧٨ .

وايتهد ، وأرسطو مع دريش وهارتمان ، وأفلوطين مع بعض الفلاسفة الوجوديين ، والقديس توما الإكويني مع المدرسة الجديدة التي تحمل اسمه ، والفلسفة المدرسية المتأخرة مع الفينومينولوجيا ، والوضعية الجديدة وليبنتز مع رسل»[1].

أي أن الغرب يعيد تكرار نفسه في صور جديدة ، ولم يفارق النقطة التى بدأ منها .

* * *

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٦٦ .

obeikandl.com

المنظومة الإسلامية لوسائل المعرفة

ما هي النقلة الحضارية التي جاء بها الإسلام لإخراج الإنسان من هذه المتاهة التي يلف ويدور فيها ولمَّا يستطع الخروج منها ، وماالذي فعله القرآن في وسائل المعرفة المتعددة هذه؟

ما فعله القرآن هو أنه أعاد تنظيم وسائل المعرفة وتنسيق العلاقة بينها ، ووضع كلاً منها في ميدانه الذي خلق له بتفسير بسيط هو الحقيقة ، ومتجانس مع المنظومة القرآنية الكبرى وتفسيرها لحقيقة الوجود ، وللعلاقة بين الله عز وجل والإنسان والكون والعلم .

فالبشرية ، قبل القرآن وبعده في غير أهله ، ما كانت إلا كإنسان يملك عيونًا وآذانًا ولسانًا وأنفًا ولا يعرف فائدة كل منها ولا وظيفته ومهمته ، فهو يرى بعينيه فيتوهم أن بصره هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة كل شيء ، ثم يغلق أذنيه ويصر على أن يسمع بعينيه ، ثم يكتشف أنه أصبح معزولاً عن العالم فيفتح أذنيه ليسمع ما حوله ، وحين يدرك أنه يحيا في العالم بأذنيه يعتبر أنهما صلته الوحيدة به فيغلق عينيه وينظر للأشياء بأذنيه ، حتى إذا أدرك أنه لابد من اجتماع سمعه وبصره في الإدراك ، ومن وضع كل منهما فيما يخصه فقط ، غفل عن أن السمع والبصر ليسا كل ما يملكه الإنسان فصار يشم الأشياء بأذنيه ويلمسها ويتحسسها بعينيه ، وهكذا !!

هذا هو بالضبط موقف الإنسان أمام وسائل المعرفة ، يمتلك حواسًا وعقلاً وإحساسًا داخليًا ونصًا وتعاليم ، فهو يريد أن يجعل المعرفة كلها كتلة واحدة والطريقة إليها وسيلة واحدة ، فتارة يختار العقل ، وتارة التعاليم ، وثالثة الحواس ، ورابعة الحدس .

ولم يعرف الإنسان أبدا كيف ينسق العلاقة بين هذه الوسائل المتعددة وينظمها لكي يضع كلاً منها في مكانه الصحيح الذي تكون فيه فعالة لتنتج في النهاية منظومة متناسقة متجانسة يمكن الوصول بها إلى المعرفة الصادقة والعلم الحقيقي ، ويمكن بها التعامل مع هذه المعرفة الحقيقية بما يمنح الإنسان الرقي في كل ما يكون به الإنسان إنسانًا .

لم يعرف الإنسان ذلك أبدًا سوى في القرآن .

حرصنا ونحن نذكر تصحيح القرآن لمعنى العلم ومفهومه أن نصف كلمة العلم بأنه المتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات ، لأن هذا في الحقيقة نوع واحد فقط من أنواع العلم .

أما العلم مطلقًا ، فهو : « **إدراك الشيء بحقيقته** »[1] .

إذًا العلم بأي شيء هو معرفته على حقيقته كما هو ، ووسيلة المعرفة الحقة من ثَم هي الوسيلة التي تمكننا من إدراك شيء ما على حقيقته .

وإذًا حل مسألة وسائل المعرفة يحتاج إلى معرفة الشيء المراد معرفته ، لنحدد بناءً على ذلك طبيعة الوسيلة التي تناسبه ونوعها ، والتي يمكن بها الوصول إلى معرفته على حقيقته .

وأمر آخر ، هو أننا بحاجة إلى أن نعرف ما هي وسائل المعرفة الفعالة والحقيقية التي يمتلكها الإنسان ، أي : ما هي الوسائل الحقيقية المتاحة أمام الإنسان لمعرفة حقيقة الأشياء .

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص٣٦٤ .

ما هى وسائل المعرفة ؟

هذا أول تصحيح ونقلة قرآنية في هذه المسألة ، فكما رأينا ، الآفة التي صاحبت كل من فكر ونظر إلى هذه المسألة هي الانحياز لوسيلة معرفة واعتبارها وسيلة المعرفة الوحيدة ، ومصادرة جميع وسائل المعرفة الأخرى بها ولصالحها .

فالإغريق صادروا بالعقل ، والكنيسة بالتعاليم ، والتجريبيون بالحواس ، والعقلانيون بالعقل ، والنقديون بهما معًا ، وفلاسفة الحياة بالحدس ، فاختلفوا ما اختلفوا في النتائج وظل المنهج الذي يحكمهم هو هو لا يتغير .

فماذا قال القرآن عن وسائل المعرفة المؤدية إلى معرفة حقيقية .

١- الحواس :

جاء القرآن فريدًا منفردًا فذًّا ليعرف البشرية أنه : ﴿ **وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ** ﴾ (النحل:٧٨)

فالسمع والبصر ، أي الحواس ، وسيلة معرفة ، بل وسيلة علم حقيقي يمكن بها إدراك الأشياء على حقيقتها ، وهي أول وسيلة ، يكتسبها الإنسان منذ أن يولد ، لأن الله عز وجل خلقه وأنشأه بهذا السمع والبصر وهذه القدرة في الحواس على المعرفة والعلم .

﴿ **ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ** ﴾ (السجدة:٧-٩).

فالإنسان قد وهب عند خلقه الحواس كوسيلة أولى لمعرفة الأشياء والعلم بها ، وفي غياب البصر ، السمع وحده كحاسة هو وسيلة للعلم والمعرفة :

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ (القصص:٧١).

والبصر وحده يصلح كوسيلة للعلم وإدراك حقيقة الأشياء : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (القصص:٧٢).

والجلد وحاسة اللمس هي وسيلة لعلم حقيقي ومعرفة صادقة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ (النساء:٥٦).

إذًا الحواس هي وسيلة فعالة وحقيقية في المعرفة والوصول إلى إدراك شيء ما بحقيقته ، أما ما هو هذا « الشيء ما » فليس مكانه الآن ، المهم أن الحواس هي وسيلة علم حقيقي ومعرفة صادقة .

وفي الوقت الذي نزل فيه القرآن كانت هذه هي أول مرة في تاريخ البشرية يجيء منهج تكون الحواس فيه وسيلة صادقة لمعرفة وعلم حقيقي .

قد يقال : ما هذا الكلام ، ألم يكن للبشرية قبل القرآن عيونًا وآذانًا حتى تنتظره ليرشدها إلى أن لها سمعًا وبصرًا ؟!

ونقول : نعم ، كان للبشرية قبل القرآن عيون وآذان وكانت تستخدمها ، لكنه استخدام الضرورة لا المنهج ، مع عدم إيلاء ما تحكم به الحواس حكم العلم والحقيقة اليقينية .

قبل القرآن كانت الحواس موجودة ، لكن لم يكن هناك منهج يعتبرها من وسائل العلم الحقيقي داخله ، ولم تدخل هذه الحواس إلى نطاق العلم كوسيلة له إلا مع المنهج القرآني ، ثم اقتبسها بعد ذلك الغرب معزولة عن المنظومة الكلية التي أفرزتها ، فصار إلى ما رأيناه من تضارب .

وبعد تأكيد الحواس كوسيلة معرفة صادقة لعلم حقيقي ماذا يقول القرآن عن العقل ؟

٢- العقل :

نلاحظ أولاً أن القرآن لا يستخدم مادة عقل أبدًا في صيغتها الاسمية الساكنة : عقْل ، عقول ، العاقلون ، بل يستخدمها دائمًا في صيغتها الفعلية المتحركة : عقلوه ، تعقلون ، يعقلها ، يعقلون[١].

وهذا بخلاف وسائل المعرفة الأخرى جميعها ، إذ يستخدمها القرآن في صيغتيها الاسمية والفعلية : يسمع ، تسمعون ، سميع ، سمع ، يبصرون ، يبصر ، بصر ، أوحى ، نوحي ، وحيًا .

وفي ذلك دلالة على أن العقل في الحقيقة ما هو إلا وظيفته ، وأنه لا يكون في لحظة معينة أداة للعلم والفهم إلا إذا كان متحركًا منطلقًا يجول في الشيء الذي توجه لعلمه أو فهمه .

ثم ماذا بعد؟

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾(العنكبوت:٤٣)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(الروم:٢٤)

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠)

إذًا فالعقل أيضًا وسيلة معرفة حقيقية وصادقة لعلم حقيقى .

ولكن ثمة ملاحظة أخرى ، وهي أن العقل ، بخلاف الحواس ، لا يكون أداة للعلم وحده ابتداءً ، وإنما هو وسيلة للعلم تبدأ من معطيات تقدمها له وسائل أخرى ، فهو لا يبدأ أبدًا من فراغ .

فإذا وضعنا هذه الملاحظة إلى جوار سابقتها ، وصلنا إلى أن العقل لا يكون أداة علم ووسيلة إلى معرفة حقيقية إلا إذا سبقته معطيات من وسيلة معرفة أخرى ، يتحرك هو فيها ويجول ليصل إلى العلم .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٦٨ .

وهذه المعطيات الأولية التي يبدأ منها العقل إما أن ترد له من جهة الحواس :

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤).

فهذه الآيات التي جاءت ليعقلها من يعقل هي أولاً صورة طبيعية زراعية خالصة ، معرفتها الأولى تتعلق بالعين وحاسة البصر، ثم يبدأ العقل كوسيلة للمعرفة من هذه المعرفة الأولى ويجول فيها ليصل إلى العلم الحقيقي المراد في هذه الصورة الطبيعية من جهة أنها دلالة على الخالق ووحدانيته ، وفي الوقت نفسه الحواس هي وسيلة معرفة حقيقية بها ، من جهة كونها طبيعة تتعامل معها .

ولذلك يقرر القرآن أنه حين يفقد الإنسان الحواس تنعدم المعارف الأولية التي يبدأ منها وفيها العقل الانطلاق والجولان للوصول إلى العلم الذي يختص به ، فيصبح العقل وكأنه لا وجود له :

﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١)

فكأن الصمم والبكم والعَمَى ، أي امتناع المعرفة الأولية القادمة من الحواس ، أدى إلى امتناع حركة العقل ووصوله إلى العلم .

ومثلها : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (الأنفال:٢٢)

فلا عقل دون معرفة أولية ، هي هنا الحواس ، فإذا فُقدت امتنعت وظيفة العقل ، إذ هي لا تبدأ من فراغ ولا تكون في فراغ .

وقد تكون المعطيات الأولية التي يبدأ منها العقل الحركة والانطلاق للوصول إلى العلم الذي يختص به واردة إليه من جهة الوحي :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢).

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

(البقرة: ٤٤)

إذًا فيما يختص بالعقل ، يقرر القرآن أنه أحد وسائل المعرفة الحقيقية والوصول لإدارك الشيء بحقيقته ، ولكنه لابد له من معرفة أولية يبدأ منها ويجول فيها ، وبدون هذه المعرفة الأولية من وسائل معرفة أخرى فالعقل لا وجود له ، أو لا وجود لوظيفته ، والعقل ما هو إلا وظيفته ، إذا فقدها انعدم .

٣- الوحي :

قرر القرآن أن الحواس هي وسائل لعلم حقيقي ، وأن العقل كذلك وسيلة لعلم حقيقي مع اشتراط أن تكون المعرفة الأولية المعطاة له للوصول إلى العلم الذي يختص به حقيقية وصحيحة ، فماذا عن الوحي؟

كما رأينا ، الغرب حين تحرر وخرج من قمقم الكنيسة اختلف على كل وسائل المعرفة ولم يتفق سوى على شيء واحد فقط ، هو نفي النص والتعاليم كمصدر لأي معرفة بما فيها العقائد .

وما فعله الغرب مع تعاليم الكنيسة أحدث التباسًا في عقول كثير من أبناء الشرق أذناب الغرب ، فرُهاب (فوبيا) النصوص التي صارت سمة لازمة للعالم الغربي ورثها هؤلاء الأذناب وأسقطوها على القرآن بوعي وبدون وعي ، فما أن يرى أحدهم للقرآن حكمًا ، أو يستشهد به أهله في مسألة ، أو يدعو أحد إلى تحكيمه وإعادته إلى مكانه من المجتمع والحياة حتى يرتجف وينتفض ، ويرغي ويزبد ، ويهاجم النصوص وكبت الحرية وتقييد العلم والرجعية والعودة إلى القرون الوسطى ، وهو لا يعلم أي شيء عن هذه « النصوص » التي يهاجمها ، ولم يفكر أن يمسكها يومًا ليرى ما فيها ، بل هو في أثناء هجومه واندفاعه يضع تاريخ الغرب مع الكنيسة أمام عينيه ، ويستحضر معارك مفكريه وعلمائه في مواجهة باباواتها وتعاليمهم ، فهو في الحقيقة يهاجم في القرآن الذي لا يعلم عنه شيئًا الكنيسة والنص التوراتي الإنجيلي الملفق .

وأمثال هؤلاء الأذناب هم في الحقيقة أنكى على العالم الإسلامي من غلاة المستشرقين ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين إنما يحكمهم في تعاملهم مع العالم الإسلامي والقرآن تعصبهم للغرب وولاؤهم له والميراث التاريخي من الصراع بين الإسلام والغرب .

أما هؤلاء الأذناب فيحكمهم في علاقتهم بالقرآن وموقفهم منه الموقف الذي ورثوه من آبائهم الروحيين في الغرب ضد النصوص عامة مرة ، ومرة أخرى ما ورثوه منهم من عداء للقرآن خاصة .

نعود إلى وسائل المعرفة ، ونحن لم نبتعد عنها .

بعد الحواس وبعد العقل كوسائل للمعرفة ، يقرر القرآن مكانة الوحي كوسيلة للمعرفة الصادقة والعلم الحقيقي ، أي إدراك الشيء بحقيقته :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ (هود:٤٩)

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف:١١٠)

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(الأنعام:١٤٥)

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (العنكبوت:٤٥)

إذًا الوحي هو وسيلة معرفة يقينية ومصدر علم حقيقي .

وفي الآيات التي انتقيناها يؤكد القرآن اختصاص الوحي كوسيلة معرفة أولية ووحيدة في مسألة العقائد والألوهية وكل ما يتصل بها، وهو وسيلة المعرفة الوحيدة الصحيحة لما غاب عن إدراك البشرية ولم تعه وليست لديها وسائل أخرى لمعرفته . ويدخل في ذلك ما قبل وجود البشرية وما لابس ظهورها على الأرض وبدء مسيرتها فيها .

وهو أيضًا وسيلة المعرفة المختصة بوضع القانون والنظام العام للبشرية وتحديد الصواب والخطأ والخير والشر ، لأن هذه كلها معرفة تخرج عن نطاق قدرات وسائل المعرفة الأخرى التي تمتلكها البشرية ، ولأن تذبذب رغبات البشر وتفاوت أهوائهم وتضارب مصالحهم يؤثر على إمكانية وسائل المعرفة الأخرى الوصول للإدراك الحقيقي للقانون والنظام الصالح لجميع البشر في كل زمان وفي كل مكان .

قد يعترض البعض فيقول : مسألة اختصاص الوحي بالعلم في مسائل ومعارف ليس لوسيلة أخرى أن تتقدم عليها فيها مسألة عسيرة الهضم ، إذ سوف يظل ملتبسًا بها التاريخ الغربي وصراعاته ، وكذلك ادعاء من يدعي أن ما عنده من نصوص هو وحي واجب الاتباع كهذا الوحي .

ونقول : الفيصل هنا والمسألة الحاسمة هي الفرق بين الوحي القرآني والنصوص الكنسية ، فالوحي القرآني ، أولاً : قرر هو في حسم اكتماله وغلق المنهج والمنظومة التي يحملها .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)

وثانيًا : قرر هو نفسه وفي حسم أيضًا ، والتاريخ والتدوين يشهدان ، أنه محفوظ بقوة علوية .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)

إذًا فالمنهج القرآني وما يحمله من علم حقيقي غير قابل لأن يتداخل به وضع بشري ولا تصورات أو معارف إنسانية ، فهو مستقل عنها كلها استقلالاً تامًا .

ولم يحدث في تاريخ القرآن ، ولا تاريخ لكتاب على ظهر الأرض مثل تاريخ القرآن ، أن اختلط به عنصر بشري أبدًا .

قد يقال : فليكن ، القرآن منظومة مغلقة مكتملة لم يختلط بها وضع بشري ولا معرفة إنسانية ، ومع ذلك فنحن في حاجة إلى أن نتثبت من أن ما يحمله من معارف وعلم هو حقيقة لكل زمان وكل مكان .

ونقول : هنا يفارق القرآن غيره من النصوص والتعاليم في بقاء المعجزة وخلودها وازديادها تدفقًا وثراءً مع مرور الزمن ، فالمعجزة ملازمة للوحي ، أو هي هو ولا تنفصل عنه .

لذلك يبقى القرآن كوحي مصدر معرفة صادقة وعلم حقيقي ما دامت المعجزة باقية ، وهي باقية ببقائه ، وما دام لم يستطع بشر أن ينازلها أو يغض من إعجازها .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

إذًا في المنظومة القرآنية ، الوحي مصدر معرفة يقينية صادقة وعلم حقيقي باكتماله وحفظه وعصمته ومعجزته الدائمة الخالدة الملازمة له .

وهو ما لا تملك شيئًا منه النصوص الملفقة والتعاليم الكنسية .

٤- الإدراك المباشر :

بعد أن أكد القرآن أن الحواس هي وسيلة معرفة صادقة ، وبيّن أن العقل هو مصدر لعلم حقيقي ، وأكد وأثبت أن ثمة أشياء لا يمكن أبدًا إدراكها ولا إدراك وجه الحق فيها إلا عن طريق الوحي فقط ، ماذا يقول القرآن عن الإدراك المباشر؟

يوضح لنا القرآن أن الإدراك المباشر لحقيقة شيء ما ، هو إدراك للشيء منفصلاً عن مقدماته ، أو هو نوع من الإدراك ليس بحاجة إلى استخدام الحواس والعقل ، لأنه غير مرتبط بظاهر الشيء الذي يمكن أن تعرفه الحواس ، وغير مرتبط بمقدمات تناسبه يمكن أن يجول فيها العقل .

ولأنه إدراك لشيء قد تخالف حقيقته التي لا يمكن معرفتها بوسائل المعرفة البشرية ظاهره البادي ، فإنه نوع من الإدراك مرتبط بالله عز وجل مباشرة ، يؤتيه عز وجل من يشاء بطلاقة قدرته وعلمه المحيط الشامل .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف:٦٥).

فإذا كان علم الإنسان ومعرفته محصورة بوسائل نظامية وانتقالية بين أسباب ومسببات ومقدمات ونتائج لقصور وسائله وقدراته ، فإن الله عز وجل قد يفيض من علمه الشامل المحيط على عبد من عباده ما يدرك به حقائق الأشياء مباشرة .

فما علمه هذا العبد الذي آتاه الله عز وجل علمًا من لدنه يخالف القانون الطبيعي ،وما يقضي به الفهم الظاهر للأشياء ويعلو فوق قدرة الوسائل البشرية ، بل يناقضها ويخالف نتائجها .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ (الكهف:٧١)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ (الكهف:٧٤)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ (الكهف:٧٧).

فهذه كلها أفعال لا تنطلق من الفهم الظاهر لمقدمات معقولة أو مرصودة ، بل من مقدمات حقيقية خفية تناقض المقدمات الظاهرة ، كشفها هذا العبد لموسى عليه السلام حين فاقت حاجته إلى الفهم صبره ، وتغلب تطلعه إلى كشف المخبوء على وعده بالطاعة .

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف:٧٩).

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف:٨٠،٨١)

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ (الكهف:٨٢)

فما علمه هذا العبد مخبوء خفي لا طاقة لوسيلة ولا مصدر بشري على الوصول إليه ومعرفته كما هو ، وإذًا الإدراك المباشر لحقيقة ما ، شيء مقرر في القرآن .

قد يقال : ها قد فتحنا بابًا لا مسد له ! ، فما الحيلة فيمن يطلع على الناس يدعي أنه قد كُشف له من الحقائق الخافية ما لا يعلمه إلا هو ، ثم يختلط في ذلك الصادق والكاذب ، ولا وسيلة عندنا لتمييز هذا من ذاك ، والأمر بعدُ لا يخضع لضوابط ، والأصل فيه أنه غير مفهوم ولا مقدمات منضبطة له في الحواس أو العقل ، فتكون النتيجة النهائية هي قدرة أي أحد على إهدار أي حقيقة ظاهرة بدعوى العلم المباشر .

ونقول : بل القرآن أعلى وأجل من ذلك ، وما ترك الأمر حتى بينه فهدى ، وحكم فيه ففصل .

أولاً : هذا النوع من العلم ليس علمًا عامًّا في البشرية ، فما كان هذا العبد الصالح في أصح الأقوال إلا : «**نبي ، وعلمه وحي يوحى إليه**»[1].

والوحي قد انقطع بوفاة سيد المرسلين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(الأحزاب:٤٠).

ثانيًا : الله عز وجل قرر في القرآن مع ختم الوحي اكتمال الدين ، بما يعني أن الوحي الخاتم قد أصبح إطارًا جامعًا وأصلاً تامًّا لن يخرج علم حقيقيٍ عن إطاره ومنهجه ، فكل من أتى بمعرفة أو ادعى علمًا يخرج به عن إطار المنهج الذي يحمله الوحي الذى اكتمل به الدين ، فعلمه خارج عن الدين .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٤١٦٩/٥ .

فليس لأحد أن يدعي إدراكًا مباشرًا لحقيقة تخرج عن هذا المنهج أو تصادم أصوله وأحكامه ، وإلا كان طعنًا منه في كماله واكتماله المقرر المحسوم يستوجب العقوبة المقررة لذلك .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣).

ثالثًا : هذا الإدراك لحقيقة شيء ما مباشرة بطريقة تخالف فيها الحقيقة الظاهر كان على عهد موسى عليه السلام ، وكل شرائع الأنبياء قبل خاتم الرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام كانت لأقوام مخصوصة ولأزمان محدودة .

فهذا العبد ، نبيًا كان أو غير نبي ، لم يكن مكلفًا باتباع شريعة موسى ، ولا هو مخاطب بها ، ولا هو محاسب على انتهاك أحكامها .

فموسى مرسل إلى قومه خاصة ، وإلى فرعون لإنقاذهم منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:٥)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ (الزخرف:٤٦)

أما هذا العبد ، فبيّن من رواية القرآن أنه لم يكن مخاطبًا برسالة موسى عليه السلام وشرعه ، بل بحث عنه موسى واقتفى أثره ليتعلم منه لا ليبلغه .

أما بعد ختم النبوة والرسالة فكل البشر مكلفون مخاطبون بها .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:٢٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨)

وبذلك أصبح البشر جميعًا واقعين تحت الأمر بالتكليف واتباع الشرع وعدم مخالفة أوامره ونواهيه وأحكامه الظاهرة ، فلم يعد في قدرة بشر أن يدعي إدراكًا لحقيقة تخالف ظاهر الأحكام والشريعة والمنهج ، لأنه بذلك يُخرج نفسه من التكليف الذي صار لازمًا لكل البشر في كل زمان وفي كل مكان إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها .

رابعًا : هذا النوع من الإدراك المباشر للحقائق غير قابل للنقل ، ولا يتعدى من صاحب هذا الإدراك إلى غيره ، بل هو مخصوص به وحده .

ولذلك كان شرط هذا العبد الصالح على موسى عليه السلام أن لا يسأله عن معنى ما يراه من غرائب وتفسيرها ، وكان التفسير والفهم إيذانًا بالفراق .

﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(الكهف:٧٨)

فهذا العلم شرطه الخفاء ، وإعلانه كان إيذانًا بانتهائه واختفاء صاحبه ، فليس لأحد أن يدعي إدراكًا مباشرة لحقيقة تخالف شريعة ظاهرة ، ومجرد إعلان أحد عن هذا الإدراك هو اعتراف منه وإقرار بعدم حيازته له ، لأن حيازته مشروطة بخفائه ، وإعلانه مؤذن بذهابه .

خامسًا : البشرية ليست مطالبة بأن تضع هذا النوع من العلم ضمن وسائل معرفتها ، ولا أن تبني عليه أحكامًا أو معاشًا ، ولا معاملة للكون أو الخلق ، بل ولا هي مطالبة بالبحث فيه ولا قبوله ممن يدعيه ، إذ موسى عليه السلام ، وهو النبي وهو الذي علم يقينًا من الله عز وجل بوجود هذا العلم عند هذا الرجل ، لم يستطع التعامل معه ولا قبوله قبول تسليم ورضا وطاعة دون فهم .

وهذا العبد الصالح ذهب كما جاء ، ولم يتبق منه أثر في القرآن سوى الإعلام بوجود هذا النوع من العلم يفيض به الله عز وجل على من يشاء من عباده .

إذًا الإدراك المباشر للحقائق هو وسيلة معرفة خاصة غير قابلة للنقل ، والبشرية غير مكلفة به ولا بتصديقه في حق أحد بعينه ، وإن كانت مطالبة بتصديق وجوده بحكم تقرير القرآن،وبتصديق وجوده في حق من عينه القرآن، وهو وسيلة معرفة ليس لها أن تخرج عن إطار منهج الوحي وأحكامه ، لعموم الرسالة وختمها ، ولحفظ الوحي واكتمال المنهج .

وقد يقال : ما الفرق بين هذا الإدراك المباشر وبين الوحي القرآني ، وكلها وسائل معرفة من الله عز وجل لا تستطيع الوصول إليها وسائل المعرفة البشرية؟

الفرق الهائل هو أن الإدراك المباشر يكون لحقيقة تخالف ما تحكم به وسائل المعرفة البشرية وتناقضه ، فلو لم يكن كذلك لما كان إدراكًا مباشرًا ، بل لكان يمكن الوصول إليه بالوسائل البشرية .

أما الوحي القرآني فهو وسيلة لمعرفة تعلو على وسائل المعرفة البشرية ولا تستطيع هذه الوصول إليها لقصورها عنها ، ولكنها لا تناقضها ولا تخالف أحكامها الظاهرة اليقينية ، والوحي القرآني بعدُ منهج منضبط مترابط لا فجوات فيه ولا مفاجآت غير مفهومة ولا مفسرة .

جمع القرآن إذًا بين الحواس والعقل والوحي والبصيرة أو الإدراك المباشر كوسائل للمعرفة ، وأكد قدرتها على الوصول إلى العلم ، أي إدراك شيء (ما) بحقيقته ، وهذا الجمع وحده هو ثورة فذة ونقلة فريدة في تاريخ البشرية .

لم يسبق للبشرية قبل القرآن ولا هي استطاعت بعده الجمع بين هذه الوسائل المختلفة كمصادر لمعرفة صادقة وعلم حقيقي ، بل كان ما وصلت إليه هو التضارب الشامل والحيرة بين هذه الوسائل المختلفة والوقوف بينها بمنهج الاختيار والنفي ، إما هذه أو تلك ، وهو ما يعني بالضرورة قصور المعرفة أو اختلاطها ، وعدم إدراك الأشياء كما هي في حقيقتها ، إذ ليس من المفهوم ولا المقبول أن توجد وسيلة معرفة بين يدي البشر وليس لها قيمة أو لا تختص بنوع من الإدراك .

فإلغاء وسيلة معرفة هو إلغاء لمصدر تكتمل به رؤية الشيء والعلم به من جميع جوانبه أو بجميع مستوياته وأبعاده ، فالشيء المدرك لن يكون أبدًا بحقيقته المكتملة مع إلغاء وسيلة معرفة تكشف جانبًا أو ناحية أو مستوى أو بعدًا أو عمقًا منه .

وكان أقصى ما وصل إليه الغرب بعد مسيرة شاقة وعرة هو الجمع بين الحواس والعقل كمصادر للمعرفة والعلم ، واعتُبر ذلك في حينه ثورة كبرى وفتحًا في فهم الأشياء وقوة انتزعته من الشك واليأس ، ولكن ظل منهج المعرفة ينقصه ما يمكن أن يعرف به الإنسان ما لا يستطيع الوصول إليه بعقله وحواسه ، والذي يشكل جزءًا هائلاً ، بل ركنًا ركينًا في فهم البشرية لحقيقة الأشياء حولها ، ولحقيقة نفسها .

بقي أمامنا أن نعرف كيف نظم القرآن العلاقة بين وسائل المعرفة المختلفة ، ليؤدي كل منها دوره ويحقق للإنسان معرفة صادقة وعلمًا حقيقيًّا ، في تناسق وانسجام لا تتضارب فيه هذه الوسائل ، ولا يصادر بعضها بعضًا ، ولا يستحوذ بعضها على الأشياء بينما إدراكها بحقيقتها يختص بغيرها فيكون المآل هو التشتت والتنافر أو الاختلاط والوهم .

وهو ما وقع فيه البشر جميعًا في غير المنهج القرآني ، فلم يجدوا حلاً إلا انتقاء مصدر ونفي غيره خروجًا من هذه المتاهة .

* * *

obeikandl.com

أنواع العلم ووسائل المعرفة

إذا كان العلم هو إدراك شيء ما بحقيقته ، فإن الوسيلة المناسبة لإدراك هذا « الشيء ما » تعتمد على ما هو ، وما هي طبيعته ، وهل هو مما يقع في متناول البشر أم يعلو على وسائلهم .

ونحن هنا لا نقدم تصنيفًا لأنواع العلوم والمعرفة ، وإنما نحن نقدم فهمًا لأنواع المعرفة والعلم حسب اختصاص وسائل المعرفة بها ، في إطار تفسير القرآن للوجود وحقيقة الكون ومعنى الإنسان وما يراد منه .

أو بطريقة أخرى نقدم فهمًا للعلم والأشياء المراد إدراكها بحقيقتها ، ولوسائل المعرفة المختصة بها ، كنتاج مرتبط بالمنظومة القرآنية الكبرى في تفسير الوجود ، وبتصحيحها للعلاقة بين الإله عز وجل والإنسان والكون والعلم .

التفسير القرآني للوجود وتصحيحه لهذه العلاقة هو بإيجاز : الله عز وجل واحد ، مطلق القدرة ، شامل العلم ، محيطه ، خلق الإنسان ليقوم بمهمة في الكون وبين الخلائق ، وليقوم بهذه المهمة زوده بالعلم كوسيلة لإنجاز هذه المهمة وإعانة له عليها .

وهذه المهمة هي الخلافة ، والخلافة هي العبادة ، وهما معًا تسيير الكون بكل ما فيه والخلائق بكل أنواعها حسب إرادة الله عز وجل المستخلِف ومنهجه وأوامره ، وسوف يحاسب الإنسان على مستوى أدائه وإنجازه لهذه المهمة .

إذًا في إطار هذه المنظومة وهذا التفسير نحن أمام ثلاثة أنواع من العلم .

النوع الأول : علم يتعلق بطبيعة المهمة ، الخلافة العبادة ، وتعريف الإنسان بها ، ما هي ، وكيف كُلِّف بها ، ولماذا كلف بها ، ومن كلفه بها ، ولماذا اختص بها وحده ، وما هي توابع هذا التكليف بالمهمة ، وماذا ينتظره إذا قام بها

أو تقاعس عنها ، وكذلك وضع نماذج إرشادية تساعد على فهم طبيعة المهمة وما يحيط بها ، من مستوى أداء البشرية في كل زمان وطوال مسيرتها لهذه المهمة ، وكيف تعاملت معها ، وما لاقته من جزاء في مقابل هذا التعامل .

النوع الثاني : علم يتعلق ببيان تفاصيل المهمة والمراد من الإنسان فيها ، فإذا كانت الخلافة العبادة ، التي هي مهمة الإنسان ، هي تسيير كل شيء بمنهج الله عز وجل وحسب إرادته وأوامره ، إذًا فلابد أن يكون الإنسان بحاجة إلى علم يعرف به ما هو هذا المنهج ، وما هي هذه الإرادة وهذه الأوامر ، أو ما هي الخطة التي يجب عليه أن ينفذها ويسيِّر الكون والخلق والخلائق بها وعلى حسب تفاصيلها ليكون قد قام بمهمته .

النوع الثالث : علم هو جزء من المهمة نفسها ، لأنه إذا كانت الخلافة العبادة هي تسيير الكون والخلائق ، فهو لابد إذًا بحاجة إلى أن يعرف أنواع هذه الخلائق ، وطبيعة هذا الكون ، وما أودع فيه من أسباب تعينه على أداء مهمته ، وما سخر له في هذه المخلوقات حتى يستطيع قيادتها ، وهو بحاجة إلى أن يعرف قدراته هو ووسائل معرفته الممنوحة له ، وأن يفهم نفسه ليستطيع استخدام كل ما وُهب له في الأداء والإنجاز .

فهذا كله نوع من العلم هو جزء من مهمة الإنسان نفسه ، لأنه يتعلق بتنفيذ المهمة وأدائها ، لا العلم بها أو بتفاصيلها .

ألا ما أيسر التفسير القرآني وأبسطه وأحكمه !

وضع لنا منظومة نسيجًا للوجود ، هي الحقيقة ، تتناسق فيها الأشياء ، ثم وضع داخل هذه المنظومة النسيج منظومة نسيجًا آخر لفهم هذا الوجود وكيفية العلم به والتعامل معه ، وربط النسيج الأصغر بالنسيج الأكبر في وحدة متلاحمة تجعل كل شيء متجانسًا بسيطًا مفهومًا ، بساطة الحقيقة التي هي أعسر الأشياء .

الإنسان في إطار أنه مستخلف ومكلف مشرف بمهمة على الأرض ، وأن هذه المهمة هي تسيير الوجود ، يحل مشكلة وسائل المعرفة بمجرد ظهوره واتضاح تفاصيله .

فالعلم الأول : وهو العلم بطبيعة المهمة ، الخلافة العبادة ، من المفهوم والذي لا يحتاج إلى عناء تفسير أنه لا يختص ابتداءً بوسائل المعرفة الإنسانية ، فالمكلف بمهمة ما ، لا يستطيع هو أن يحدد طبيعتها ، وإنما تحديد طبيعتها وما يحيط بها هو معرفة وعلم مختص بمن أنشأ المهمة وأوجده واختاره لها .

فالأمر ، ولله المثل الأعلى ، كرئيس يكلف مرؤوسًا له بإنجاز مهمة ما ، السياق الطبيعي والأمر البديهي أن طبيعة المهمة وما يحيط بها سيكون من عند الرئيس المكلِّف وليس من عند المرؤوس المكلَّف بالمهمة ، وادعاء المرؤوس علمه بطبيعة المهمة من غير طريق الرئيس المكلِّف وجهته هو نفسه خروج على المهمة وعبث بها .

إذًا هذا النوع من العلم لا وسيلة له إلا من جهة الله عز وجل المستخلِف ، وهو من ثَم علم أو شيء لا يمكن إدراكه بحقيقته إلا عن طريق الوحي فقط ، فهو وسيلة معرفته الوحيدة .

وهذا النوع من العلم يدخل فيه ، كما هو بائن بنفسه ، حقيقة الألوهية وصفات الله عز وجل المستخلِف ، ووجود الملائكة والجن ، وما لابس خلق الإنسان وتكليفه بالمهمة ، وما سبق خلقه ، وسبب خلقه ، ووجوده في الملأ الأعلى ، وما صاحب ذلك من أحداث ، وكيف أهبط إلى الأرض وبدأ مهمته فيها .

وأيضًا كيف ستنتهي مهمته ، ومتى ، وما سيعقب ذلك من بعث وحساب عليها وجزاء على أدائها أوإهمالها ، وطبيعة هذا الجزاء وأنواعه وصفاته وتفاصيله .

وكذلك ما حدث أثناء مسيرة البشرية من إنجاز واعتراف بالمهمة ، أو إهمال لها وخروج عليها ، وما أرسله الله عز وجل من رسل وأنبياء لتصحيح المسيرة وتنبيه من غفل وتعريف من جهل وإعادة من انحرف ، وما تبع ذلك من جزاء لمن عاند وجحد ، أو آمن واتبع .

قد يقال : هذا النوع من العلم الذي تتعلق معرفته وإدراكه بحقيقته بالوحي ، نظرًا لطبيعته وخصائصه ، وعدم قدرة الإنسان على إدراكه والوصول إليه بوسائل معرفته لأنه ليس مما تختص به ، ألا يوجد لوسائل المعرفة الأخرى أي اختصاص به ، هل هي يجب أن تكون في حياد تام أو أن تعطل إزاء هذا النوع من المعرفة؟

ونقول : لا ، وهذا هو إعجاز التفسير القرآني وسره في تنظيمه لوسائل المعرفة المختلفة في تناسق لا يُجزئ الإنسان ولا يشتته ، فهو يخاطبه بكل ما فيه من الإنسان ، لكي يدرك الإنسان حقيقة أي شيء وهو كلٌّ واحد متوحد .

فهذا النوع من العلم لا يمكن إدراكه إلا عن طريق الوحي ، لكن هذا الوحي هو إما أن يكون صوتًا يُسمع أو مكتوبًا يُقرأ ، إذًا فالحواس لها دورها ووظيفتها في هذا النوع من العلم ، ودورها يأتي تابعًا للوحي ، إذ وظيفتها تلقيه واستقباله .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا ﴾

(آل عمران:١٩٣)

﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

(التوبة:٦)

﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾

(الأعراف:١٤٥)

فلابد من الحواس كوسيلة تلق للوحي واستقبال له .

فأين دور العقل في هذا النوع من العلم ؟

العقل ، كما علمنا ، مهمته في أي معرفة هي أن يجول منطلقًا من معطيات أولى ومعرفة أولية ، ومهمة العقل في هذا النوع من العلم هي الأخذ عن الحواس ، ثم الحركة فيما أخذ لفهمه وعقله ، أي تقييده في الإنسان ليكون جزءًا من تكوينه ، ومن فهمه وتفسيره ورؤيته للوجود ولنفسه ولمهمته وطبيعتها .

ومن غير هذه الحركة من العقل لتقييد ما أخذ عن الحواس ثم فهمه واستيعابه وقبوله ، يكون استقبال الحواس لهذا النوع من العلم بلا فائدة ، أو كأنها لم تستقبله مطلقًا .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ (الأنفال:٢١)

﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك:١٠)

إذًا العلم المتعلق بطبيعة المهمة وما أحاط بها من ملابسات ، وما يترتب عليها من حساب وجزاء ، وما فعلت البشرية في تاريخها معها ، وما أنجزت أو قصرت ، هو معرفة يختص بها الوحي ابتداءً ، ووظيفة الحواس فيها التلقي والاستقبال ، ووظيفة العقل هي الفهم والوعي والاستيعاب ، ثم البناء عليها .

وأما النوع الثاني من العلم : فهو العلم بالأوامر والمنهج الذي مهمة الإنسان أن يسيِّر الوجود عليه ويحكم نفسه ويحكمه به ، وأمر بيِّن ومن البدائه أن هذا العلم من اختصاص الوحي أيضًا ، ذلك أنه حين يكلف الرئيس مرؤوسًا بمهمة محددة ، فإن تحديد تفاصيل المهمة والمطلوب إنجازه فيها والخطة التي يجب اتباعها وتنفيذها متعلق بالرئيس لا بالمرؤوس ، وبالمكلِّف بالكسر لا بالمكلَّف بالفتح .

وأيضًا أي خروج من المكلَّف بالمهمة عن هذا المنهج أو الأوامر ، أو تجاهله لها ، هو خروج عن المهمة وعبث بها .

فإذا كان هذا النوع من العلم والمعرفة هو مهمة الوحي ومن اختصاصه ، أن يرشد الإنسان إلى الأوامر والأحكام والمنهج الذي ينبغي أن يسير نفسه عليه والوجود كله معه ، مرة أخرى : ما هو دور وسائل المعرفة الأخرى في هذا النوع من العلم والمعرفة ؟

الحواس هنا موقفها هو موقفها نفسه في النوع السابق من العلم ، التلقي والاستقبال ، لأن الوحي مصدر المعرفة إما يكون كلامًا مسموعًا ، استقباله منوط بالأذن ، أو أن يكون كلامًا مكتوبًا ، استقباله متعلق بالبصر .

﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور:٥١)

ثم بعد دور الحواس في الاستقبال يكون دور العقل في فهم هذا المنهج وهذه الأوامر المراد تسيير الخلق والوجود عليها ، لأن هذا المنهج وهذه الأوامر ما هو وما هي إلا كلمات وعبارات ، أي لغة ، وفهم اللغة عملية عقلية تعتمد على معرفة معنى الألفاظ والتراكيب ، وتحليل المراد من الصياغات وما تحتمله العبارات .

فوظيفة العقل في هذا النوع من العلم والمعرفة هي الغوص والاستقراء لمعرفة مراد الوحي وتفسيره وتوضيحه .

وللعقل دور آخر في تطبيق هذا الفهم على الواقع وتنزيل المنهج وتسيير الخلق والخلائق والكون به ، ذلك أن منهج العبادة الخلافة إنما جاء عامًّا شاملاً للإنسانية في كل مكان وفي كل زمان ، والله عز وجل العليم بخلقه وكونه ، الحكيم في تقديره ، يعلم اختلاف البشر واختلاف الوقائع واختلاف الأزمنة والأمكنة ، فجعل عز وجل قواعد المنهج مجملة كلية ، يبدأ منها العقل ويجول لتطبيق هذا المنهج وهذه الأوامر الكلية بما يتناسب مع الوقائع والمستجدات ، وبما لا يخرج عن إطار الوحي وروح المنهج وأهدافه وقواعده الكلية .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة:١٢٢)

يقول الإمام الشاطبى الغرناطي : «**لم يتبق للدين قاعدة يحتاج إليها في الضروريات والحاجيات أو التكميلات إلا وقد بينت غاية التبيين ، نعم**

يتبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولاً إلى نظر المجتهد ... ولا يوجد ذلك إلا فيما لا نص فيه»[1].

إذًا هذا النوع من العلم الخاص ببيان الأوامر والمنهج الذي سوف يقوم الإنسان بتنفيذه لإنجاز مهمة الخلافة هو من اختصاص الوحي ، ولكن المنظومة القرآنية لا تقسم الإنسان ولا تفتته ، بل تقرر وتتعامل معه على أنه وحدة واحدة لا يمكن فصل جزء فيه عن جزء ، وهو في إدراكه للأشياء لا يدركها بحقيقتها إلا إذا تكاملت وسائل معرفته معًا في إدراكها ، مع الوعي أن كلاً منها له حدود ودور واختصاص وما يناسبه من المعرفة .

لذا فبعد أن أبان القرآن اختصاص هذا النوع من المعرفة بالوحي ، قرر أن للحواس دورها فيه ، وأن للعقل دوره فيه ، فهذا العلم لا يكتمل إلا بالتناسق والتفاعل بين الوحي والمنهج نفسه من جهة وبين الحواس والعقل من جهة أخرى ، وإلا كان كلامًا نظريًا يعلق على الرفوف ، وما جاء القرآن لهذا .

بقي أن نعلم أن هذا النوع من العلم المتعلق بالمنهج والأوامر والأحكام ، التي ينبغى أن يسير عليها الإنسان نفسه والوجود معه ، ينضوي فيه بطبيعته وتعريفه القوانين والتشريعات ، والأخلاق والسلوك ، وضوابط العلاقة بين الإنسان والإنسان ، والإنسان والمخلوقات ، والإنسان والطبيعة ، وكل ما يحكم نظام المجتمع وتكوينه .

أما النوع الثالث من العلم : وهو العلم بالكون وتركيبه وقوانينه ونظامه وكيفية سيره وعمله ، وبالمخلوقات : ما هي ، وما وظائفها ، وكيف هي مسخرة مذللة للإنسان ، وبالإنسان : ما تكوينه ، وما أودع فيه من وسائل وقدرات ، فهو جزء من المهمة نفسها ومن وظيفة الإنسان في الوجود .

لذا فإن هذا العلم يتعلق أساسًا بأداة إدراك الكون والطبيعة الأولى ، وهي

---

(١) الإمام الشاطبي الغرناطي : الاعتصام ، ص٥٠٣ .

الحواس ، ثم يليها العقل في تنظيم هذه المعرفة وتنسيقها واستخلاص نتائجها وتطبيقها .

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

فهذا العلم ، الوصول إليه جهد وإنجاز بشري يجب على الإنسان فعله لأنه جزء من مهمته ، ولأن فيه عونًا له على أدائها ، ولأن في هذا العلم توجيهًا له دائمًا إلى الخالق ، وإرشادًا إليه ، وتذكيرًا له بالمهمة .

ونسأل السؤال هذه المرة بطريقة عكسية .

إذا كان هذا النوع من العلم يتعلق بالإنسان ووسائل معرفته : الحواس والعقل ، إذًا فلا دور ولا مجال للوحي فيه؟

ونقول : لا ، بل للوحي دوره ومكانه ، فالوحي لا ينفصل عن وسائل المعرفة الأخرى ، كما أنها هي لا تنفصل عنه ، فهي كلها وحدة واحدة ومتكاملة الأثر في إدراك الحقيقة ، واستبعاد إحداها يؤدي إلى خلل فادح في المعرفة وتشويه للحقيقة المراد إدراكها .

الوحي هو الذي ينبه الإنسان إلى هذا النوع من العلم ويعرفه بوجوده ، ويرشده إلى طريقه ووسائل الوصول إليه ، ويدفعه ويحثه عليه .

وبعد هذا فالوحي لا يفرض على الإنسان نظرية علمية ، ولا يقيده ولا يمنعه من الخوض في العلم بالكون والطبيعة والمخلوقات كيف شاء وبأي منهج ، بل وليس عليه حرج أن يخطأ في نتائجه ثم يعود فيصحح ما أخطأ فيه ، لأن هذه مهمته وهو عرضة فيها للخطأ والتصويب ولا إثم عليه .

ويبقى للوحي دور آخر في هذا النوع من العلم ، هو ضبطه لنتائجه ، وترشيده لكيفية استخدام آثاره بما يكون في إطار الوحى نفسه وداخل منهجه .

فاستخدام هذا العلم وتطبيقه واستغلاله هو جزء من المهمة التي لا ينبغي للإنسان أن يخرج عن أوامرها وأحكامها ، وكيفية استخدام هذا العلم واستغلاله في التعامل مع الكون والطبيعة والخلائق يدخل ضمن المنهج الذي مهمة الإنسان أن يسير نفسه والكون به .

فالعلم نفسه طليق ، لكن استخدامه مشروط بأن يكون في حدود المنهج وحسب إرادة الله عز وجل المستخلف .

هذا هو إذًا التنظيم القرآني لوسائل المعرفة ، وتنسيقه للعلاقة بينها ، وبيانه لكيفية استخدامها ، وللعلم الذي تختص كل منها بإدراكه بحقيقته ، في إطار المنظومة القرآنية الكبرى والتفسير القرآني للوجود كله وللعلاقة بين الإله عز وجل والإنسان والكون والعلم .

تنظيم وتفسير متناسق مترابط ، تتجانس خيوطه مع خيوط التفسير والمنظومة الكبرى ، فتصبح كل الأشياء مفهومة في أماكنها وأوضاعها ، والعلاقات بينها مستقرة مفسرة ، ووسائل المعرفة منظمة متآزرة متكاملة تعمل معًا في وحدة لتؤدي وظيفة واحدة ، هي إدراك الأشياء بحقيقتها .

وقد تتقدم وسيلة معرفة أخرى في مجال أو ميدان ، لكنها لا تصادرها أو تلغيها ، فالإنسان ، في ضوء الجمع القرآني لوسائل المعرفة كلها وتقريره لها معًا كمصادر علم حقيقي ، وفي ضوء التفسير القرآني لوسائل المعرفة والتنسيق بينها ، الإنسان كلٌّ واحد متوحد ، ليس بحاجة لكي يدرك شيئًا إلى أن يلغي شطرًا من وجوده ، أو لأن يتضارب داخله العقل مع الحواس ، أو هما معًا مع إيمانه وطمأنينة نفسه .

الإنسان في القرآن يدرك الأشياء بكل وسائل معرفته معًا وإن اختلفت أدوارها ووظائفها ، أو هو يدرك الأشياء بكل ما فيه من الإنسان ، وبكل ما يكون به الإنسان هو الإنسان .

* * *

آثار التصحيح القرآني لمعنى العلم الطبيعي وتنظيمه لوسائل المعرفة

١- العلم حين يتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات لابد أن يكون منهجه هو المشاهدة والملاحظة والمراقبة لا التأمل النظري والفكر المجرد .

فهذا العلم مصدره الكون والطبيعة نفسها ، وليس أفكار الإنسان النظرية التي تميل مع التجريد إلى التعقيد ، بينما نظام الكون مبني على البساطة .

٢- الله عز وجل هو الذي منح الإنسان العلم بالكون والطبيعة والمخلوقات ، وزوده عز وجل بالقدرة على استكشافها وبيان نظامها وحياتها ، لأن هذا العلم هو وسيلته في معرفة الكون والمخلوقات المكلف بالخلافة فيه وعليها ، وهو وسيلته لإنجاز هذه المهمة ، وهو مرشده في كتاب الكون إلى رب الكون .

٣- استغلال هذا العلم وتطبيقه جزء من مهمة الإنسان وخلافته في الكون والخلائق،وإذًا هذا الاستغلال والتطبيق مشروط بمنهج الخلافة ومرتبط بها، ولابد من توخي إرادة المستخلف فيه .

٤- الله عز وجل خلق الإنسان وزوده بوسائل المعرفة والوصول إلى إدراك الأشياء بحقيقتها ، وجعله عز وجل كلاًّ متوحدًا تلتقي فيه هذه الوسائل وتتكامل وتمتزج للوصول إلى المعرفة الحقيقية ، فلا فاصل بين عقل الإنسان وحواسه ، ولا حواجز تحجز بينها ، أو تجعل اختصاص أحدهما بنوع من المعرفة إلغاءً أو تعطيلاً للآخر، فالمعرفة الإنسانية متعلقة بهما معًا ، مع اختلاف أولوية كل منهما في إدراك الأشياء باختلاف طبيعة الأشياء المراد إدراكها .

٥- الوحي لابد منه للمعرفة لكي تستقيم حياة الإنسان ويستطيع فهم ما ليس في طاقة حواسه ولا عقله أن يصل إليه لقصورهما ، وإن كان لا يناقضهما أو يصادمهما ، وهو ضرورة بديهية لكي يعرف الإنسان لماذا خلق ووجد ، وكيف خلق ووجد ، وإلى أين هو صائر ، وما الهدف من وجوده على الأرض .

وهو ضرورة لأنه يحمل المنهج الذي تكمن مهمة الإنسان على الأرض في تنفيذه ، وبدون هذا المنهج تصبح حياة الإنسان ووجوده عبثًا لا معنى له ولا طائل من ورائه ، ولا بداية ولا نهاية له حينئذ سوى العدم .

٦- الوحي يعمل مع العقل والحواس في تناسق ونظام لا تضارب فيه ولا خلل ولا نفى لأحدهما بالآخر ، مع الإقرار بأن الوحي بالضرورة هو الإطار المهيمن بحكم مصدر الأعلى والأشمل والأكمل والأوثق والأحكم .

٧- ثمار المنظومة القرآنية لوسائل المعرفة :

أ- فيما يختص بالوحي : هذا الكتاب كله من مبدئه إلى منتهاه ، فمن يريد معرفة ثمرة إدماج الوحي كوسيلة معرفة صادقة يقينية وعلم حقيقي للبشر ، ما عليه إلا أن يعيد القراءة من البداية البداية وحتى النهاية النهاية .

ب- مولد العلم التجريبي : وهذه سنقف عندها وقفة منفصلة .

كان من نتاج النقلة الحضارية التي جاء بها الإسلام أن ظهر لأول مرة في تاريخ البشرية العلم التجريبي كمنهج ، فانساح العلماء الذين كونتهم وأنتجتهم المنظومة القرآنية ونشأوا في ظلالها وتشكلت عقولهم بها وبأثرها في الحياة وبما أتت به من حقائق عن الكون والعلم ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، انساحوا في بلاد الله يشاهدون ويرصدون ويلاحظون ويقارنون : «**وانتشرت في كل مكان الأصوات القائلة : لقد لاحظت ، أنا نفسي رأيت ، لقد راقبت وشاهدت ، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق**»[1].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٢٠ .

وابن البيطار : «**جمع النباتات من العالم الإسلامي بأسره ، وقارن بين نباتات الهند ونباتات إيران ونباتات اليونان ونباتات إسبانيا (الأندلس) ، وفي تصنيفه يشرح ألفًا وأربعمائة نوع من النباتات**»[1].

والكيميائيون المسلمون : «**كانوا يطرحون نفس الأسئلة التي يطرحها الكيميائي اليوم ، وكانوا ينهجون نهجًا تجريبيًّا شبيهًا في جوهره بنهج اليوم**»[2].

وهذه العبارة الأخيرة ، حفظًا للحقوق وردًّا للفضل إلى أهله ، ينبغي أن تعاد صياغتها لتكون : الكيميائي اليوم هو الذي يطرح نفس الأسئلة التي كان يطرحها المسلمون ، والمنهج التجريبي المستخدم اليوم هو هو المنهج الذي كان ينهجه العلماء المسلمون ونقله الغرب منهم .

ميلاد العلم التجريبي القائم على الرصد والملاحظة والمشاهدة والسير في الطبيعة وتعقب ظواهرها والتجربة والخطأ ثم التصحيح ، والذي ولد في الإسلام ، أو بدقة أكثر ولد من القرآن ولم يكن موجودًا قبله ، كان نتاجًا لتفاعل عناصر عدة وامتزاجها .

وهذه العناصر هي :

١- **التوحيد** : ذلك أن القرآن يعلم العالم المسلم أن وحدانية الله بادية بآثارها في الكون والطبيعة ، وأن عليه السير في الكون والنظر فيه للوصول إلى هذه الآثار ودلالتها على توحيد الله عز وجل ووحدانيته ، ومن أراد أن يتيقن فليراجع قول البتاني والخوارزمي وفلسفتهما المذكورة سابقًا في فهم صلة العلم الرياضي والكوني والطبيعي بالألوهية والتوحيد .

وأمر آخر هو ذو أثر كبير في ولادة هذا العلم ودفعه وإن كان غائرًا عميقًا في النفس ، وما كان لهذا العلم أن يولد ولا يوجد إلا به وفى ظلاله .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٢١ .

(٢) مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص ٥٧ .

هذا العلم قائم على السير والمشاهدة والتنقل من مكان إلى مكان لتعقب الظواهر وجمع الأدلة ومتابعة موضوعات العلم ، وما كان هذا ليستطيعه العرب دون التوحيد .

ذلك أن العربي الوثني في الجاهلية كان يعبد إلهه وفي يقينه أن سطوة إلهه وقدرته ونفوذه محصورة بنطاق مكانه الذي صُنع فيه وفيه يعبد ، وأنه إذا خرج من هذا المكان إلى مكان يسوده إله آخر ويعبده قوم آخرون فقدَ مظلة حماية الإله له لأنه ترك حدود نفوذه إلى نطاق نفوذ هذا الإله الآخر .

لذلك لم يكن العربي قبل الإسلام يستطيع التنقل كثيراً بعيدًا عن دياره ، وإذا تنقل ففي نطاق نفوذ إلهه ، وللضرورة .

أما بعد التوحيد ، فالله عز وجل هو الإله الواحد الذي لا إله غيره ، وأينما سار المرء وولى كان معه وفي حماه ورعايته ، وبذلك أمكن أن يترك العربي بيداءه وأن يسيح في الأرض ليفتحها ويعمرها ويرصد ويراقب ويتتبع ويستقصي .

٢- تصحيح معنى الكون والطبيعة ، وبيان حقيقته وإحكامه ، ونظامها ودقتها ، وتسخيرها بما وضع فيها من نظام وإحكام ودقة للإنسان .

٣- تصحيح معنى العلم حين يتصل بالطبيعة والكون والخلائق وتغيير مفهومه ، فهو علم قائم على النظر والملاحظة والبصر والمشاهدة ، ولو ظلت البشرية في الطريق الذي كانت فيه لظلت حيث هي ألف ألف سنة دون أن تتقدم خطوة أو تحرز إنجازًا حقيقيًّا ، إذ المطلوب كان فوق مستوى إدراكها ، وهو وجوب نزعها وتحويل مجراها من طريق إلى طريق ومن منهج إلى منهج .

٤- إعادة الاعتبار للحواس كوسيلة معرفة حقيقية فيما تختص به ، وتنظيم العلاقة بينها وبين وسائل المعرفة الأخرى .

٥- تفسير القرآن للعلم وأصله وحقيقته ، وأنه هبة من الله عز وجل ، وأنه جزء من مهمة الإنسان على الأرض : الخلافة العبادة ، وهو وسائله لتحقيق هذه المهمة ، وهو مرشده إلى الله عز وجل ، ودالُّه عليه سبحانه بآثاره في الكون والخلق .

٦- التجربة الرائدة أو التطبيق الأول للتجربة كمنهج في التعامل مع الطبيعة :

من العناصر المهمة التى نبهت أنظار عالم الإسلام ، ووجهته إلى الطريقة التي ينبغى التعامل بها مع الطبيعة والمخلوقات ، وأدت إلى ميلاد العلم التجريبي وجود تجربة رائدة للنموذج التطبيقي للمنظومة القرآنية ، تجربة علمية حقيقية تحوي كل عناصر التجربة العلمية ، ولا يغض من هذه التجربة بساطتها ، فليس من المهم ولا المحدِّد لعلمية التجربة مستوى التعقيد فيها ، بل المهم أن تتعامل مع ما هو موجود في الطبيعة وإن كان بسيطًا .

والنقلة الفذة في هذه التجربة الرائدة هي المنهج الذي تحمله لكيفية التعامل مع الطبيعة والعلم بها ، واحتواؤها لكل عناصر التجربة العلمية ، وإقرارها بما نتج عنها ، واعترافها بصدق المشاهدة والملاحظة وكفاءة الحواس ، ثم التطبيق العلمي لنتيجة التجربة .

قبل أن نعرض هذه التجربة الرائدة والأولى في تاريخ البشرية ونرى تفاصيلها وكيف احتوت على عناصر المنهج العلمي التجريبي كلها ، لابد أن نعرف أولاً ما هي عناصر التجربة كمنهج علمي .

التجربة كمنهج علمي تقوم على الخطوات الآتية :

أولاً : وضع فرضية ، ويشترط في هذه الفرضية أن تكون قابلة للاختبار ، أي لمعرفة صحتها من خطئها ، والفرضية نفسها قد تكون تفسيراً لشيء معين ، أو للعلاقة بين عدة أشياء ، أو حلاً افتراضيًّا يمكن اختباره لمشكلة ما .

مثلاً : عندنا ثلاثة أشياء أو عناصر : **(أ)** ، و**(ب)** ، و**(ج)** ، **(ج)** : ظاهرة ، و**(أ)** و**(ب)** : مؤثرات تؤدي لحدوثها ، ونريد التأكد من هذه العلاقة وتفسيرها ، فنضع فرضية هي : الظاهرة : **(ج)** تحدث نتيجة لتأثير : **(أ)** في : **(ب)** .

فالفرضية التي سنقوم باختبارها لمعرفة صحتها من خطئها هي : إذا كان : **(أ)** يؤثر في : **(ب)** فيؤدي إلى : **(ج)** ، فإن إزالة تأثير : **(أ)** على : **(ب)** سوف يؤدي إلى عدم وجود أو حدوث : **(ج)** ، ثم يتم تأكيد الفرضية أو نفيها بإعادة تأثير : **(أ)** إلى : **(ب)** .

ثانيًا : اختبار هذه الفرضية لمعرفة هل هي صحيحة أم لا ، عن طريق مراقبة ما يحدث عند تنفيذ الفرضية وملاحظته .

وفي مثالنا ، فإن هذه الخطوة تكون بوضع : **(أ)** ، و**(ب)** ، و**(ج)** معًا ، ثم إزالة : **(أ)** والمراقبة والملاحظة والمشاهدة لمدة قد تطول أو تقصر حسب كل عنصر من عناصر التجربة ومعرفتنا السابقة به .

ثالثًا : جمع البيانات الناتجة عن الاختبار أو التجربة . وفى حالتنا هذه البيانات ستكون : إزالة تأثير : **(أ)** على : **(ب)** أدى فعلاً إلى عدم وجود أو حدوث الظاهرة : **(ج)** ، أو قد تكون : إزالة تأثير : **(أ)** على : **(ب)** لم يؤد إلى تغير في : **(ج)** ، أو إلى تغير طفيف لا أهمية له أو غير معتبر .

فلا يهم في التجربة أن تكون نتيجتها سلبية أو إيجابية ، المهم هو قدرتها على الحكم على الفرضية إيجابًا بإثبات صحتها أو سلبًا بنفيها .

رابعًا : استخدام البيانات أو المعلومات الناتجة عن الاختبار والتجربة في تعديل رؤيتنا ، وكيفية تقديرنا للظاهرة ، وتعاملنا مع عناصرها ومكوناتها .

وفى حالتنا ، إذا كانت التجربة إيجابية فلابد أن يدخل في اعتبارنا عند دراسة الظاهرة : **(ج)** أو التعامل معها أن وجودها أو حدوثها يتوقف على تأثير : **(أ)** في : **(ب)** ، ثم تضم هذه المعلومة إلى سابقاتها ، ثم يضم إليها غيرها فيحدث التراكم .

هذه هي عناصر التجربة وخطواتها كمنهج علمي ، فلنر الآن التجربة الرائدة التي تحمل المنهج التجريبي متكاملاً بكل أركانه وعناصره .

عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : « مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال : ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ : ما أظن يغني ذلك شيئًا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنى إنما ظننت ظنًّا ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل ».

وعن رافع بن خديج قال : « قدم نبي الله ﷺ وهم يؤبرون ، يقولون : يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون؟ قالوا : كنا نصنعه ، قال : لعلكم لو لم تفعلوا لكان خيرًا ، فتركوه فنفضت أو فنقصت ، قال : فذكروا ذلك له فقال : إنما أن بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر ».

وعن عائشة وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصًا ، فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ قالوا: قلت : كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1].

ونطابق الآن بين هذه التجربة الرائدة أو التطبيق الأول للمنهج القرآني في التعامل مع الطبيعة وبين عناصر التجربة وخطواتها كمنهج علمي .

كما قلنا ليس مطلوبًا من التجربة ، أي تجربة ، لكي تكون علمية وحاملة للمنهج العلمي أن تكون معقدة ، وليس العالم أو المجرِّب مطالبًا باختراع عناصر مركبة لإجراء تجربته ، بل على خلاف ذلك المطلوب من التجربة لكي تكون منهجًا أن تتعامل مع ما هو موجود وإن كان بسيطًا ، وما يمكنها وضعه تحت الاختبار والتجربة .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، مجلد ٥ ، ١١٧/١٥، ١١٨ ، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره عليه الصلاة والسلام من معايش الدنيا على سبيل الرأي .

نحن في هذه التجربة الرائدة ، والأولى من نوعها كمنهج أمام ثلاثة عناصر : النخل والتلقيح والإثمار، وكان المعتاد تلقيح النخل وتأبيره لكي يثمر ، فجاء النبي عليه الصلاة السلام ورأى ما يفعلون فوضع فرضية ، وهذه الفرضية هي أن التلقيح ليس له دور مؤثر في إثمار النخيل ، فإذا كان التلقيح غير مؤثر في إثمار النخيل فإن استبعاده لن يؤثر في مقدار ما يثمره النخيل ولا في جودته .

وكما قلنا ليس مهمًّا أن تكون الفرضية سالبة أو موجبة ، المهم أن تكون الفرضية قابلة للاختبار والتحقق من صحتها .

ثم !

ثم بعد وضع الفرضية جاءت مرحلة الملاحظة والمشاهدة والمراقبة لجمع البيانات ، والتي استغرقت موسمًا كاملاً ، هو المدة المقدرة ، بالمعرفة السابقة لها ، للحكم على صحة الفرضية أو خطئها .

ثم !

ثم جاءت مرحلة جمع البيانات ، لتثبت خطأ الفرضية التي وضعت لاختبارها . فالنخل لم يثمر كما كان يثمر عند تلقيحه ، إذًا تبين أن تأبير النخل أو تلقيحه يحدث فرقًا مؤثرًا أو معتبرًا Significant في النتيجة .

وكما قلنا ليس مهمًّا أن تكون نتيجة التجربة سالبة أو موجبة ، المهم قدرتها على إعطاء نتيجة يتم بناءً عليها تصحيح المعلومة ، ثم إدخالها كمكون في التعامل مع عناصر التجربة .

ثم !

جاءت رابعًا مرحلة تطبيق هذه المعلومة وتحويلها إلى واقع فعلي ، فبعد أن أثبتت التجربة والاختبار خطأ الفرضية عادوا لتلقيح النخل مرة أخرى ليثمر بطريقة أفضل ، أي أخضعوا المعلومة الناتجة عن التجربة للتطبيق الفوري وجعلوها جزءًا من الممارسة ، ولكن هذه المرة بعد الاختبار العلمي والتأكد المنهجي .

قد يقول البعض : ما هذه المغالاة ، وهل كان النبي عليه الصلاة والسلام يقصد إجراء تجربة علمية؟

ونقول : ليس المهم أن يطلق من يقوم بالتجربة ويضع فرضية ويختبرها اسم التجربة أو أي اسم آخر على ما يفعله ، أو أن لا يسميه بأي اسم على الإطلاق ، المهم أن ما يفعله يحمل في داخله وأثناء قيامه به وممارسته لخطواته المنهج نفسه ، أما الصياغة النظرية للمنهج أو تنظيره فشيء آخر ليس ضروريًا ولا شرطًا في المنهج نفسه ، ولا فى الحكم عليه بالصحة واستيفائه لعناصر المنهج العلمي .

وأمامنا من يمارسون التجارب في الجامعات والمدارس من الطلبة بقصد التعلم خير مثال على ما نقول ، فكلهم يقوم بتجارب علمية صحيحة ، ومن خلال منهج علمي منضبط ، ولكن كثيرًا منهم لا يستطيع صياغة ما يفعله ويقوم به أثناء التجربة صياغة تحدد خطواتها ، أو تبرز المنهج الحاوي لعناصر التجربة وروابطها وأهدافها .

إذًا القيام بالتجربة والتعامل بمنهجها شيء ، وصياغتها أو إطلاق الأسماء وتقسيمها إلى خطوات ومراحل شيء آخر غير ضروري للحكم على علميتها وصحتها .

ومن ثَم ، فهذا المثال الرائد في تطبيق منهج التعامل القرآني مع الطبيعة يحوي كل عناصر التجربة الناجحة والمنهج العلمي التجريبي : وضع الفرضية القابلة للاختبار ، والملاحظة والمشاهدة ، وجمع البيانات ، ثم تطبيق نتيجة التجربة وتحويلها إلى جزء من الممارسة .

ونوجز فنقول : المنهج التجريبي ما كان له أن يولد ولا أن يوجد إلا بالنقلة الحضارية القرآنية التي أعادت تصحيح الوجود : الإله والإنسان والكون والعلم ، وبترجمة هذه المنظومة في جوانبها المختلفة وتحويلها إلى حياة فعلية ، ومنهج العلم والتعامل مع الكون والطبيعة هو أحد هذه الجوانب ووجه من وجوه هذه الحياة الفعلية .

وعلى من يريد معرفة أثر هذه التجربة وأمثالها كميراث تناقل منهجه المسلمون ، وكبذرة ونواة أولى لكيفية التعامل مع الطبيعة والعلم بها ، أن يفترض وقوف أرسطو وأمثاله من الأغارقة ، أو من الغرب ما قبل الاحتكاك بالعالم الإسلامي ، أمام مشكلة من نفس النوع ، كيف كانوا سيفكرون فيها ، وأي طريق كانوا سيسلكونها في الحكم والتقدير .

أما الغرب المسيحي الكنسي فإنه لن يلتفت للمشكلة أصلاً ، وسوف يكون موقفه منها : اقبل الأمور كما هي ولا تبحث في ما لا يفيد .

وأما أرسطو وأمثاله ، فكان سيجلس في غرفة ويفترض فرضية فعلاً ، ثم يقوم بتخيل ما يترتب على هذه الفرضية وما ينتج عنها ، ثم يقوم بتحويل النتيجة إلى ممارسة فعلية في الواقع ، أي سيقوم بالتجربة كاملة تامة في نصف ساعة وفي ذهنه فقط ، ودون أن يشغل نفسه بالنظر إلى النخل أو التجربة وانتظار نتيجة تلقيحه أو عدم تلقيحه !!

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم ، بيان الإله والوحي المحفوظ .

ثانيًا : المصادر العربية :

١- أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي ، الإمام : الاعتصام ، مطبعة الحلبي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

٢- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري ، الإمام : تهافت الفلاسفة ، تحقيق : دكتور سليمان دنيا ، دار المعارف ، ط٧، القاهرة ، ١٩٨٧م .

٣- أبو الحسن أحمد بن محمد بن جبير ، الرحالة : رحلة بن جبير ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١م .

٤- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، الإمام : صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، الحافظ : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دارطيبة للنشر والتوزيع ، ط الثانية ، الرياض ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٦- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، الإمام : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م .

٧- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، الإمام : المفردات في غريب القرآن ، دار التحرير ، القاهرة ، ١٩٩١م .

٨- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد ، الفيلسوف : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، تحقيق دكتور محمد عمارة ، دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ١٩٨٣م .

٩- أحمد أمين ، الأستاذ : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١٥ ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

١٠- أدولف إرمان ، المؤرخ : ديانة المصريين القدماء ، ترجمة : دكتور عبد المنعم أبو بكر ودكتور محمد أنور شكري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
١١- أرنولد توينبي ، المؤرخ : الحضارة في الميزان ، ترجمة : أمين محمود الشريف ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
١٢- آلان توران ، دكتور : نقد الحداثة ، ترجمة : أنور مغيث ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧م .
١٣- ألكسيس كاريل ، دكتور : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة : عادل شفيق ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٤- إيتين جيلسون ، المؤرخ : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة : دكتور إمام عبد الفتاح إمام ، مكتبة مدبولي ، ط٣ ، ١٩٩٦م .
١٥- أ . م . بوشنسكي ، المؤرخ : الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة : دكتور عزت قرني ، عالم المعرفة ، العدد ١٦٥ ، الكويت ، ربيع الأول ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
١٦- ب . كوملان ، المؤرخ : الأساطير الإغريقية والرومانية ، ترجمة : أحمد رضا محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .
١٧- بونداريفسكي ، دكتور : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ترجمة : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٥م .
١٨- تزفيتان تودوروف ، المؤرخ : فتح أمريكا ، مسألة الآخر ، ترجمة : بشير السباعي ، دار العالم الثالث ، ط٢، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
١٩- جميل صليبا ، دكتور : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧١م .
٢٠- جورج جاموف ، الفيزيائي : بداية بلا نهاية ، ترجمة : محمد زاهر المنشاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠م .
٢١- جوزيف شاخت ، وكليفورد بوزورث : المستشرقان : تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، ودكتور حسين مؤنس ، ودكتور إحسان صدقي العمد ، تعليق وتحقيق : دكتور شاكر مصطفى ، عالم المعرفة ، العدد ٢٣٣ ، ط٣ ، الكويت ، المحرم ١٤١٩هـ / مايو ١٩٩٨م .

٢٢- جوستاف لوبون ، المؤرخ : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، ط٣ ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .
٢٣- لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحي زغلول ، دار الفرجاني ، القاهرة ، طرابلس ، لندن ، بدون تاريخ .
٢٤- جوليان هكسلي ، دكتور : الإنسان في العالم الحديث ، ترجمة : حسن خطاب ، مراجعة : دكتور عبد الحليم منتصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦م .
٢٥- جيمس بيرك ، المؤرخ : عندما تغير العالم ، ترجمة : دكتورة ليلى الجبالي ، مراجعة : دكتور شوقي جلال ، عالم المعرفة ، العدد ١٨٥ ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٤هـ/مايو١٩٩٤م .
٢٦- جيمس فريزر ، المؤرخ : الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين ، ترجم بإشراف : دكتور أحمد أبو زيد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط٢، ١٩٩٨م .
٢٧- جيمس هنري برستد ، المؤرخ : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الفارسي ، ترجمة : دكتور حسين كمال ، راجعه وصححه : محمد حسين الغمراوي ، وزارة المعارف العمومية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .
٢٨- برستد : فجر الضمير، ترجمة : دكتور سليم حسن ، مراجعة : عمر الإسكندري ، وعلي أدهم ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨م .
٢٩- حسين مؤنس ، دكتور : الحضارة ، عالم المعرفة ، العدد ١ ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م .
٣٠- حسين مؤنس ، مشرف : دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .
٣١- دار الكتاب المقدس بالأشرق الأوسط : الكتاب المقدس ، مجموعة أسفار التوراة والأناجيل وأعمال الرسل ، ١٩٩٥م .
٣٢- دار المشرق : المنجد الأبجدي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، حزيران ١٩٦٧م .
٣٣- روبرت بريفالت ، دكتور : أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ترجمة : السيد أحمد أبو النصر الحسيني ، بدون تاريخ وبدون دار نشر .

obeikandl.com

٣٤- زكي نجيب محمود ، دكتور : نافذة على فلسفة العصر ، كتاب العربي السابع والعشرون ، الصفاة ، الكويت ، أبريل ١٩٩٠م .
٣٥- زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦م.
٣٦- زيجريد هونكه ، المستشرقة : العقيدة والمعرفة ، ترجمة : عمر لطفي العالم ، دار قتيبة ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
٣٧- زينب عبد العزيز ، دكتورة : هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة ، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٩٦م .
٣٨- زين العابدين متولي ، دكتور : علم الفلك عند علماء العرب والمسلمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
٣٩- ستيفان زفايج ، المؤرخ : ماجلان قاهر البحار ، ترجمة : حبيب جاماتي ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، يوليو ١٩٥١م .
٤٠- ستيفن هوكنج ، دكتور : تاريخ موجز للزمن من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء ، ترجمة : دكتور مصطفى فهمي ، دار الثقافة ، ١٩٨٤م.
٤١- سيد قطب ، الأستاذ : التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ، ط١٠ ، ١٩٨٦م .
٤٢- سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، دار الشروق ، ط٤ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
٤٣- شارل جينبيير ، دكتور : المسيحية نشأتها وتطورها ، ترجمة : دكتور عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٥م .
٤٤- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي ، الإمام : الجامع لأحكام القرآن ، دار الغد العربي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
٤٥- عباس محمود العقاد ، الأستاذ : الله ، دراسة في نشأة العقيدة الإلهية ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، فبراير ١٩٥٣م .
٤٦- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المؤرخ : المقدمة ، تحقيق : أبو مازن المصري ، وكمال سعيد فهمي ، المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ .
٤٧- عبد المجيد النجار، دكتور : خلافة الإنسان بين النقل والعقل ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط الثانية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٤٨- عـزت قرنـي ، دكتـور : الفلسـفة المصـرية ، شـروط التأسـيس ، المكتبـة الثقافية ، ١٩٩٢م .
٤٩- عفت الشـرقاوي ، دكتـورة : في فلسـفة الحضـارة الإسـلامية ، دار النهضـة العربية ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨١م .
٥٠- فرانكلين باومر ، المؤرخ : الفكـر الأوروبـي الحـديث ، الاتصـال والـتغير والأفكار ، ترجمة : أحمد حمدي محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .
٥١- فرانز روزنتال ، دكتـور : منـاهج العلمـاء المسـلمين في البحـث العلمـي ، ترجـمـة : أنيس فـريـحـة ، مؤسـسـة فـرانكلين الأمريكيـة ، نيويـورك ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠م .
٥٢- فؤاد زكريا ، دكتور : التفكير العلمي ، مكتبة مصر ، ١٩٩٢م .
٥٣- كارين أرمسترونج ، المؤرخة : سيرة النبي محمد ، ترجمة : دكتور فاطمـة نصر ، ودكتور محمد عناني ، سطور ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
٥٤- كرين برينتون ، دكتـور : أفكـار ورجـال قصـة الفكـر الغربـي ، ترجمـة : محمود محمود ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين الأمريكيـة للطباعـة والنشر ، القاهرة ، نيويورك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، نوفمبر ١٩٦٥م .
٥٥- مالك بن نبي ، الأستاذ : وجهـة العـالم الإسـلامـي ، ترجـمـة : دكـتـور عبد الصبور شاهين ، مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، ط١، ١٩٥٩م .
٥٦- مايكل هارت ، دكتور : الخالدون مائة ، ترجمة : أنيس منصور ، المكتب المصري الحديث ، ط٥ ، ١٩٨٤م .
٥٧- مجمع اللغـة العربيـة : المعجـم الـوجيز ، طبعـة وزارة التربيـة والتعلـيم ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
٥٨- محمد أبو زهرة ، الشيخ : محاضرات في النصـرانية ، دار الفكـر العربـي ، ١٩٨٧م .
٥٩- محمد سيد طنطاوي ، دكتور : هذا هو الإسلام ، هـديـة مجلـة الأزهـر ، ذو القعدة ١٤٢٧هـ .
٦٠- محمد محمد حسين ، دكتور : الاتجاهـات الوطنيـة في الأدب المعاصـر ، مكتبة الآداب ، ط٢ ، ١٩٦٢م .
٦١- محمد هيشور : الأستاذ : سنن القرآن في قيـام الحضـارات وسقـوطهـا ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٦٢- موريس بوكاي ، دكتور : القرآن والإنجيل والتوراة والعلم ، جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس الغرب ، ١٩٨٣م .
٦٣- مونتجومري وات ، المستشرق : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ترجمة دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م .
٦٤- مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة : حسين أحمد أمين ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
٦٥- ميشيل كاكو ، دكتور : ما بعد أينشتين والنسبية ، ترجمة : دكتور فايز فوق العادة ، أكاديميا للنشر ، ١٩٩٠م .
٦٦- نديم الجسر ، الشيخ : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، طرابلس ، لبنان ، بدون تاريخ .
٦٧- ول ديورانت ، المؤرخ : قصة الحضارة ، ج١ : نشأة الحضارة ، ج٢ : الشرق الأدنى ، ج١٣ : عصر الإيمان ، ترجمة : دكتور زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ١٩٧١م ، ١٩٧٤م .
٦٨- ول ديورانت : قصة الفلسفة ، ترجمة : دكتور فتح الله محمد المشعشع ، مكتبة المعارف ، ط٥ ، بيروت ، ١٩٤٩م .
٦٩- وليم جيمس ، الفيلسوف : العقل والدين ، ترجمة : دكتور محمود حب الله ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .
٧٠- يمنى طريف الخولي ، دكتورة : العلم والاغتراب والحرية ، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللا حتمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ثالثًا : دوريات :

١- مجلة عالم الفكر ، مجلد ١٥ ، أكتوبر ـ ديسمبر ، ١٩٨٤م .

رابعًا : مصادر أجنبية :

1- Oxford Keys , Oxford University Press , 1980.
2- The New Encyclopedia Britannica , Britannica Inc . fifteenth edition , printed in USA , 1988.
3-Webster'Ninth Collegiate Dictionary , Meriam Wbster Inc . Publishers , Sprigfield , USA , 1983.